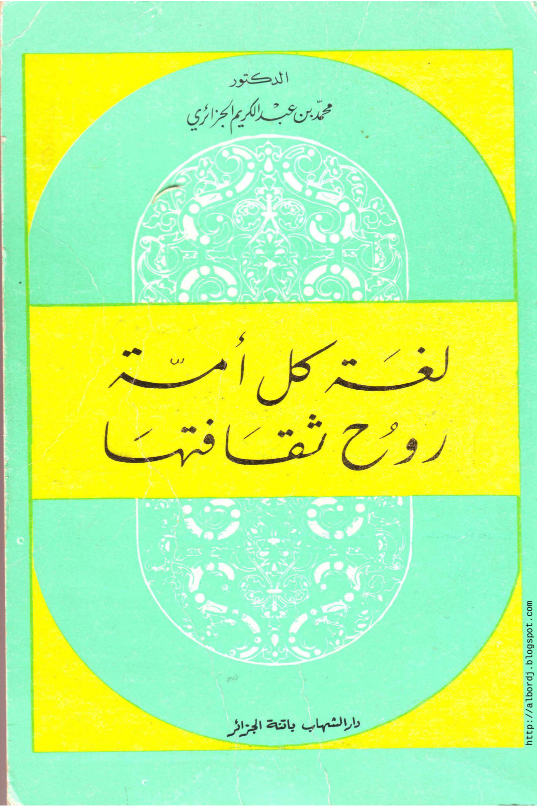

الدكتور
محمد بن عبد الكريم الجزائري
لغة كل أمة
روح ثقافتها
دار الشهاب باتنة الجزائر
http://albordj.blogspot.com

دار الشهاب للطباعة والنشر - عمار قرفي - المنطقة الصناعية - حي كشيدة - ص ب : 61 باتنة
الهاتف : 55.79.55 ● 55.79.94 ○ تلكس : 8991

لغة كل أمة
روح ثقافتها

الدكتور
محمد بن عبد الكريم الجزائري




بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي اللغة ؟

اللغة من لغا يلغو بكذا ؛ إذا نطق وتكلّم به .

وقد جاء فعلها على ثلاث صِيَغ : من باب «دعا» ، و«سعى» ، و«رضي» . وكلٌّ منها صحيح .

قال ابن منظور في «اللسان» ـ نقلاً عن الأزهريّ ـ : «واللّغة من الأسماء الناقصة ، وأصلها لَغْوَةٌ من لغا ؛ إذا تكلّم» .

وقال الزمخشريّ في «الأساس» : «ولغوت بكذا : لفظت به ، وتكلّمت» .

وقال ابن جِنّيّ في «الخصائص» : «أمّا حدّها (أي : اللغة) فإنّها أصوات ، يُعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم» .

فمن خلال العبارات المتقدّمة الذكر يتّضح لنا جليّاً أنّ الأصلَ في مدلول اللغة أصوات ، ينطق بها المتكلّم ؛ سواء كانت هذه الأصوات عن قصد منه أو عن غير قصد . فلا فرق بين كلام المفكّر الفيلسوف وبين كلام الجاهل الأبْعط ، ولا فرق بين كلام الطفل الرضيع وبين كلام المجنون الطائش .

فكلام كل شخص من هؤلاء الأشخاص يعدّ لغة من حيث العرفُ اللغويّ ؛ أما من حيث العرف العلميّ فمدلول اللغة مفهوم نِسبِّيٌ ، يختلف باختلاف اتجاه صاحب العلم ومذهبه فيه . ولهذا السبب نجد العلماء يختلفون في مفاهيمهم للفظة «اللغة» ، وفي تعاريفهم لها أيضاً .

وموضوع كلمتي ـ هذه ـ لا يسمح لي أن أتصدّى لسرد هذه التعاريف ولذكر تلك المفاهيم ؛ بَيْدَ أنّني مُلزم بوضع تعريف جديد سيكون ـ إنْ شاءَ الله ! ـ مُلائماً لمدلول هذا الموضوع .

وقد ارتأيت أن يكونَ هذا التعريفُ محصوراً في هذه الفقرة ؛ وهي : «كُلُّ لَفْظٍ وُضِعَ لِمَعْنىً بالْقَصْدِ» .

فقولي : «بالقصدِ احترازاً من الْألفاظِ التي لها معانٍ غير مقصودة : كأصواتِ الحيواناتِ بأجمعها ، وكألفاظِ المجانين ، والرُّضَّع ، والنّيَام مِنْ أبناء البشر .

فكلُّ ذلك لا يُسمّى «لُغَةَ ثقافة» ، لخُلُوِّهِ من القصدِ والإرادة .

فاللُّغةُ ظاهرةٌ اجتماعيةٌ من ظواهر المجتمعاتِ البشرية ، ونتيجةٌ مَرْموقةٌ ، من نَتائجِ الاتّصالاتِ والمعاملاتِ في كلّ عصرٍ وفي كلّ جيل .

وظيفة اللغات وتطورها

ووظيفتُها الأساسيةُ التعبيرُ عمَّا يختلجُ في الصدورِ ، وإيصالُه إلى أفهامِ الأفرادِ والجماعات . **وتَطوُّرُ** اللغاتِ رهينٌ بتطوُّرِ الأفكارِ والشواعرِ انحطاطاً ورُقيّاً .

فاللغاتُ ما هي سوى كائناتٍ حيّة ، تنمُو ينُمُوِّ ثقافاتِ الأممِ وحضاراتِهم ، وتَجْمُدُ بجمودِ أهلِها ، ثمَّ سُرعانَ ما تموت ؛ عند فُقدانِ الثِّقة بالنفسِ ، والتَّنَكُّرِ للأرومة ، والزُّهدِ في التراثِ اللُّغَوِيّ . واللغةُ تحفظُ كيانَ الأمّة ، وتحمِي أنظِمتَها وثقافتَها من وصْمةِ التّقليدِ الأعمى . والأمَّةُ هي المسئولةُ عن نموِّ لغتِها وتَطوِيرِها ، وهي المسئولةُ ـ أيضاً ـ عن جمودِها ومَوتِها ؛ لا ريبَ في ذلك .

وليس العكس ، لأنَّ الإنسانَ سابقُ الوجودِ على اللغة ؛ بل هو الذي أوجدها ، واخترعَ ألفاظَها ومقاطِعها ؛ حسْبَ أمزجتِهِ ومُتَطلَّباتِ معاشِهِ أثناءَ حياتِه .

وليستْ اللغة مجموعاتٍ من الأصواتِ ومقاطِعَ من الكلمات ؛ ينطقُ بها الشخصُ حسبَ ذوقِه وهواه ؛ بلِ اللغةُ في جوهرِها مرآةٌ صقيلة ، تنعكِس على أديمِها عاداتُ الإنسان ، وقِيَمُه ، وتقاليدُه ، وتتبلورُ فيها أنظِمةُ المجتَمعاتِ ومُثُلُها .

فكلّ شخصٍ تنكّرَ للغتِهِ فقد شد عن مجتمعِه ، وفقد عُضويَّتَه منه ، وأضاعَ شخصيّتَه عن عَمَد ، لأنّ عملاً مثلَ هذا يُعدُّ خروجاً على ما هو مَأْلُوفٌ بينَ البشر ، وتمرُّداً على ما ألِفَه الناسُ حولَه ، وتَوَاطَؤُوا عليه ؛ من حيث الأساليب ، والصّيَغ ، والقواعد . وكلُّ خارجٍ ومتمرِّدٍ على النّظام اللغوي يُعتَبرُ - أيضاً - خارجاً ومُتَمَرِّداً على النظامِ الإجتِماعيّ ، الذي - هو - يعيشُ فيه .

فأيَّة لُغةٍ كانت في العالَم ؛ ما هي سوى نوعٍ من أنواعِ السلوك الإجتماعيّ .

وإذا كان مدلولُ الثقافةِ «ملكةً» في العلمِ وإتْقاناً في الْعَمَلِ (1) ؛ فغيرُ ممكنٍ أن تَرسخَ هذه الملكةُ ويَحصُلَ هذا الإتقانُ بدونِ لغة ؛ إذْ هي «مفتاحُ عامٌ» لأبوابِ العلوم والآدابِ والفُنون ، ورسولُ أمينٌ لأفكارِ الإنسانِ ، ومظْهَرٌ صادقٌ لشواعره ، ومرآةٌ صقيلةٌ تنطبعُ عليها عواطفُه وعرائزُه .

ولولا اللغةُ لبقيتْ جميعُ الأشياءِ مُبهَمةَ الأسماء ، مجهولةَ الدِّلالة ، مُهمَلةَ الوظائف .

---

(1) أنظر كتابنا «الثقافة ومآسي رجالها» . فقد اشبعنا الحديث هناك عن الثقافة وما يتعلق بها .

واللغةُ لم توضَعْ كلُّها في وقتٍ واحدٍ ؛ بل وُضِعتْ مُتلاحقةً متتابعة ؛ حسبَ حاجةِ الإنسانِ إلى مُسمَّياتِها .

وليستْ علاقةُ اللّغةِ بالثقافةِ علاقةَ وسيلة ؛ حسبَ رَأْي بعضِ المتطفِّلينَ على العلومِ الإنسانيّة ؛ إذ قد زعمَ هذا البعضُ أن اللغةَ ما هي سوى وسيلةٍ من شتّى وسَائلِ الحياة ، التي لا تُحصى عدّاً .

وقد جرَّهم هذا الزّعمُ إلى التساهلِ في استبدالِ اللّغة الإفرنجيَّة باللغة العربيّة .

وحُجّتُهم في ذلك أنَّ الحياةَ العصريّةَ تقْتضي ما زعموه . وقد غاب عنهم أنّ الحياة - على وجه العموم - ما هي سوى سلوكٍ وتفكير ، وأنّ سلوكَ الشعوبِ وتفكيرَهم محدودانِ بلغاتِهم ، ومرهونان في تعابيرهم .

وقد عبّر بعض علماء الإفرنج عن عملِ اللُّغةِ في التّفكير بقوله : «التفكيرُ بمثابةِ التّكلُّمِ سرّاً ، والتكلُّمُ بمثابةِ التفكير جهراً .

وقد سبقَهُ إلى هذا المعنى الشاعرُ العربيُّ بقوله :

إنَّ الْكَلاَمَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإنَّما
جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دلِيلاَ

والنتيجةُ أنّ أيَّ شعبٍ أهملَ لغتَهُ واستعار لُغةَ شعبٍ آخر ؛ فَسُلوكُهُ وتفكيرُه - هما الآخرانِ - مستعارانِ بالدرجةِ - الأولى .

ومن كان كذلكَ فلا شخصيّةَ له ، ومن لا شخصيّةَ لَهُ فلا

ثقافةَ لَهُ ، ومن لاثقافةَ لَهُ فحظُه في الحياة تقليدٌ أعمى . أعاذنا الله منه ! ولسنا بمُخطئين عندما نُصرِّحُ بأنّ علاقةَ الثقافة ـ باللُّغة ـ بمثابة ـ علاقة ـ الروحِ بالجسد .

فالثقافة روحٌ ، واللغة جسد ، فلا يُمكنُ استغناءُ أحدِهما عنِ الآخَر ؛ ما دامتِ الثقافة ثقافةً ، واللغةُ لُغَةً في مفهومهما بالأصالة . إنَّ الشرائعَ السماويّةَ والقوانينَ الوضعيّةَ والتقاليدَ المُتَّبعةَ والعاداتِ الموروثة ؛ كُلّها قد تَجَسَّدتْ في اللّغة .

وإنَّ اختلافَ ألْسنةِ البشر وليدُ المجتمعاتِ البشريّة ، ومُتمخِّضٌ عن مَقتضيات حياتِهم زماناً ومكاناً ، وفي ذلك آيةٌ وعبرة لأولي الألباب .

قال الله ـ تعالىٰ ! ـ ﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[1] . وقد كان من الحِكْمَةِ الإلهيّةِ أن بعثَ الله في كلّ أمّةٍ رسولاً بلسان قومِه ، ليُبلّغَ لهم ما أمره الله بتَبْليغِه . قال الله ـ تعالىٰ ! ـ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2] . وقد كان من الحكمةِ الإلهيّةِ ـ أيضاً ـ أنْ جعلَ الله البشرَ شعوباً وقبائل ، ليحصلَ بينهم التّعارف ، ويتمَّ بينهم التعاوُنُ على البرِّ والتَّقْوَى .

ولا سبيلَ إلى ذلك إلّا بلُغاتِهم المُعبِّرةِ عن إرادتِهم .

قال الله ـ تعالى ! ـ : ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ

---

(1) سورة «الروم» . الآية 22 .

(2) سورة «ابراهيم» . الآية 4 .

وأُنثى ، وجعَلْناكُمْ شعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا . إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتقاكُمْ[1]﴾. فَإِنْ قَالَ قائلٌ : كيفَ تُنكرون على الشعوبِ الّتي استبدلتْ لغاتِ غيرِها بلغاتِها ، ثمّ تُحبذون استِعمالَ اللُّغةِ العربيَّةِ في الأقطارِ التي ليسَتْ للعرب بالأصالة ؛ مثلَ مِصْرَ ، وإفريقية الشمالية ، وجميعِ الأقطارِ الإسلاميةِ على وجهِ العموم ؟ ! قُلنا : إنَّ شعوبَ هذه الأقطارِ وقبائلَها قد اعتنقوا الإسلام ، ليتّخِذوه ديناً وشريعةً لهم ، ولِيَسْتَوْحوْا منه أخلاقَهم وثقافتَهم وحضارتَهم ، وليستَفيدوا سعادةَ الدُّنيا والآخرة .

ولا يتِمُّ الوصولُ إلى فهمِ الإسلامِ ومقْتضياتِه ؛ إلاّ بعدَ فهمِ محتوى القرآنِ والحديث النَّبويّ فمعرفةُ هذه اللّغةِ شرط أساسيٌ للثقافةِ الإسلاميّة ، التي مُعتَمدُها وَحْيّ السماءِ وحديثُ مَنْ لا ينطقُ عن الهوى .

(1) سورة «الحجرات» ، الآية 13 .

دور وحدة اللغة في ثقافات الشعوب

نحن لا نرتاب - أبداً - في أنّ وحدة اللّغة عامل من العوامل الأساسية لازدهار ثقافة كلّ أمّة وانتشار حضارتها عبر الأجيال والعصور ؛ منذ بداية التاريخ البشري ، ومنذ استئناس الإنسان بأخيه واحتكاكه به .

قال كمال محمد بشير - في كتابه «قضايا لغوية» - : «من الصعب جدّاً - إن لم يكن من المستحيل - أن تتّحد أمّة من الأمم أو تظهر قومية من القوميات وتقوى ؟ بدون ارتكاز إلى لغة موحّدة ، تجمع بين قلوب أبناء هذه الأمة ، وتوحّد بين مشاعرهم وعواطفهم .

ومن ثمّ تقودهم يد واحدة وقلب واحد إلى آمالهم وأهدافهم .

وما ذلك إلّا لأنّ اللغة الموحّدة تمثل نوعاً من التماثيل في الرأي والفكر ، وضرباً من التشابه في السلوك وأساليب العيش ؛ أو قل : إن وحدة اللّغة هي سبيل وحدة الثقافة ، وتقارب وجهات النظر في الحياة .

وهي عامل من عوامل تكوين الشعور بوحدة الآمال والآلام» . انتهى النص .

ولنا في القرآن الكريم أسوة حسنة ؛ من حيث توحيد لغات العرب في لغةٍ واحدة ؛ ألا وهي لغةُ قريش .

وقد كان هذا التوحيدُ مِنْ أقوى الأسبابِ . التي عمِلتْ على حِفظِ اللُّغةِ العربيّة وبقائِها حيَّةً سليمة ، ونشرِها في الأمصارِ والأقطار .

والمراد بوِحدةِ اللغةِ توحيدُ مُختَلفِ اللَّهجاتِ المحلِّيَّة ، وصَهْر جميع اللُّغاتِ الأجنبيَّةِ في لغةٍ وطنيَّةٍ واحدة ، قابلةٍ للقراءةِ والكتابةِ بالأصالة .

فجميعُ اللهجاتِ المحلّيَّةِ ـ عندنا في شَمَالِ إفريقيةِ مثلاً ـ : كالعاميّةِ والبربريّة ؛ بما فيها القبائليّة ، والشاويّة ، والمِيزابيّة ، والشلحيّة ، والتَّوَارقيَّة ؛ كلُّها ليست لُغةَ ثقافةٍ بالنّسبةِ إلى سُكَّانِ شمالِ إفريقية ، لأنّها غيرُ قابلةٍ للقراءةِ والكتَابة ؛ زيادةً على عدمِ توحيدِ ألفاظِها وأساليبها .

وما قيل في العامية والبربريّةِ بجميع لهجاتِها يُقالُ في جميع اللغاتِ الإفرنجيَّةِ بالنّسبةِ إلى الأمةِ العربيّة .

فاللُّغَةُ الفرنسيَّةُ مثلاً ليست لغةَ ثقافةٍ بالنّسبةِ إلى شعوبِ المغربِ العربيّ ، لأنهم لا يتكلّمونَها بالأصالة ، وليست ـ هي ـ لغتَهم الوطنيَّة ، النابعةَ من صميمِ مُجتَمَعِهم ؛ بل هي شعار «مِنْ

شعاراتِ العدُوِّ الغازي لأوطانِهم ، مِنْ أجلِ احْتِلالِها واستِعبادِ النّسماتِ بها .

فمِنَ العارِ المُخجِلِ أن لاَ تزولَ هذه اللّغةُ الأجْنبيَّةُ بزوالِ من جاءنا بها غازياً .

ومِنَ الخِذلانِ الفظيعِ أن تبقى هذِه اللُّغةُ عالِقةً بألسِنَتنا ، مُكرَّمةً بيننَا ، مُقدَّمةً في مدارسِنا ومعاهدِنا ، مبجَّلةً في جامعاتِنا وإداراتِنا ، مُستعمَلةً في مُخْتَلَفِ شؤونِنا الوطنيَّة . ثمّ مِنَ المستَغرَبِ جدّاً أن تبقَى هذه اللغةُ معمولاً بها في مُعاملاتِنا اليوميّة ، وأن تبقَى رائجةً بينَ أُسَرِنا في منازِلنا !﴿إنَّا لله ،وَإنَّا إلَيْهِ ـراجِعُونَ[1]﴾ !!

فإن قال قائلٌ : إنّ اللُّغاتِ الأجنبيَّةَ ضروريّة لجميع الشعوبِ ، لأنّ كلَّ شعبٍ منها مرتَبِطٌ معَ الآخَرِ بمصالحَ ثقافيةٍ وسياسيّةٍ واقتصاديّة ؛ فهذا الرسولُ ـ صلى الله عليهِ وسلّم ! ـ يأمُر زيْدَ بْنَ ثابتٍ بتعلُّمِ اللّغة السّريانّية أو العِبرانيّة .

وهذا شاعرٌ يقولُ :

بِقَدْرِ لُغَاتِ الْمَرْءِ يَكْثُرُ نَفْعُهُ ... وتِلْكَ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ أعْوَانُ

فَبَادِرْ إلى حِفْظِ اللُّغَاتِ مُسَارِعاً ... فَكُلُّ لِسَانٍ في الحَقِيقَةِ إنْسَانُ

---

(1) سورة «البقرة» . الآية 156 .

قُلنا : يجبُ على كلِّ أُمّةٍ ـ قبلَ أن تَتعلّمَ اللغاتِ الأجنبيّةَ ـ أن تُحدِّدَ الغايةَ مِنْ تعلُّمها إيّاها .

فإذا كانتِ الغايةُ من ذلك التعلّمِ إثراءَ الأفكارِ واقتناصَ الحِكْمة ، وقضاءَ المصالحِ الضروريّة ؛ فحبّذا تعلُّمُها ، وإذا كانتِ الغايةُ من ذلكَ التعلُّم التَّشَبُّه بأصحابها ، والتخلُّقَ بأخلاقهم ، والتقليدَ لَهُم في سلوكِهم ؛ فتعلُّمها ـ عندئذ ـ ينقلِبُ إلى عدولٍ عن الأصل ، وإلى انحراف ، لا ترضاه أيّةُ أُمَّةٍ تحترمُ نفسَها ، وتعتزُّ بلغتِها ولا سِيّما لغةَ العرب التي نزل القرآن بها .

قال الله ـ تعالى! ـ : ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرآناً عَربياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون(1)﴾ .

والمصالحُ الضّروريةُ هي التي دفعت الرسولَ ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ أن يأمرَ زَيْدَ بنَ ثابتٍ بتعلُّمِ اللّغةِ العبرانيّة ، وقد تعلّمها في ظرفِ خمسةَ عشر يوماً ثمَّ المصالحُ الضروريّةُ ـ أيضاً ـ هي التي دفعتْ خُلفاءَ بني أميّةَ وبني العباسِ أن يأمُروا بعضَ علماءِ المسلمين بتعلُّمِ لغةِ اليونانِ ولغةِ الفرس ؛ حتّى يتمكّنوا مِنْ تَعريبِ كتبِ الفلسفةِ والأدبِ عند الأمّتيْن .

وفي نظرِنا أنّ من يُحسنُ عدّةَ لغاتٍ ـ دون ابتكارٍ في التفكيرِ والتّعبير ـ لا يستحقُّ لقَبَ «مثقَّف» ، والسببُ في ذلك أنّ ذوي اللّغاتِ العديدةِ تكونُ ـ عادةً ـ أفكارُهم وأساليبُهم مستعارةً من

---

(1) سورة «يوسف» . الآية 2 .

غيرهم . فإذا نظرنا إلى عباقِرةِ الدنيا في العصورِ القديمةِ لم نجدْهم من حَفَظَةِ اللُّغاتِ العديدة ؛ بلْ كادوا ـ جميعاً ـ يَكونون ذوي لغةٍ واحدة .

والسببُ في ذلك أنّ العبقريَّةَ تنمُو وتكتمِلُ بنُموِّ لغةِ صاحبِها واكتِمالِها في المعنى والمبنى .

ولا يخفى علينا أنّ لغةَ الشخصِ الأولى والأصليّةَ هي تعبيرٌ صادقٌ عن أفكارِهِ وشواعِرِهِ وعواطِفهِ وغرائزِهِ ، وعن دينِه وعقيدتِه ، وعن مجتمعِه المحتَكِّ بهِ على وجهِ العموم ؛ بل لغتُهُ الأمُّ هي جزءٌ لا يتجزّأُ من شخصيّته .

أمّا اللغاتُ الأخرى الطارئة عليه ، فهي نتيجةٌ لأفكارِ غيرِه وشواعِرِهم ، وعواطِفِهم وغرائِزِهم وعقائدِهم ، وأديانِهم ، ومجتمعاتِهم ، لأنّها مُواكِبةٌ لحياتِهم مِنَ المهدِ إلى اللّحد .

وهذا ما جعلَ جميعَ التراجمِ ناقصةً من حيث المدلول الأصليّ ، فلا تفي ـ أبداً ـ بمعاني اللّغةِ الأولى ، التي صِيغَتْ ألفاظُها وجُمَلُها حَسْبَما تقتضيهِ أفكارُ الناطِقين بها وأمزِجَتُهم وعوائِدُهم وبيئاتُهم وفصاحتُهم . قال الجاحظ ـ في كتابه «الحيوان» ـ : «ولا بُدَّ للتَّرْجُمانِ مِنْ أنْ يكونَ بيانُه في نَفْسِ التَرجَمَةِ في وَزْنِ عِلْمِهِ في نَفْسِ المَعْرِفَةِ .

وينبغِي أنْ يكونَ أعلمَ النّاسِ باللُّغةِ المنقولةِ والمنقولِ إليها ؛ حتّى يكونَ فيهما سواءً وغاية .

ومتى وجدناهُ أيضاً قد تكلّم بلسانَيْنِ عَلِمْنا أنّه قد أدخلَ

الضَّيْمَ عليْهِمَا ، لأنَّ كُلَّ واحدةٍ من اللُّغتَيْنِ تَجْذِبُ الأخرى ، وتأخذ منها ، وتَعترِضُ عليها .

وكيف يكونُ تمكُّنُ اللِّسانِ منهما مُجْتَمِعَيْنِ فِيه ؛ كَتمكُّنِه إذا انفردَ بالواحدة ؛ وإنَّما قُوَّةً واحدة ؟ ! فإن تكلَّم بلغةٍ واحدةٍ استُفرِغتْ تِلْكَ القُوَّةُ عليهما ، وكذلكَ إنْ تكلَّمَ بأكثرَ من لغتَيْنْ ؟ على حسابِ ذلك تكونُ التَّرجَمَةُ لجميع اللّغات .

وكُلَّما كانَ البابُ أعْسَرَ وأضْيَقَ والعُلماءُ به أقلَّ ؛ كانَ أشدَّ على المُترجمِ ، وأَجْدرَ أن يُخطِىءَ فيه» . انتهى النّص .

ونحنُ نعتبرُ تَرْجَمَةَ القرآنِ الكريم إلى لغةٍ غيرِ اللّغةِ التي نزَل بها مَضْيَعةً للوقت ، وضرباً من ضروبِ الضلالِ والتَّضليل . ولو أنفقَ هؤلاءِ المترجمون أوقاتَهم في تعليمِ لغةِ القرآنِ وتعلُّمها لَكانَ أحوطَ لهم وأنفعَ للناس . إذْ كيفَ يُمكنُ تَرجمةُ نصوصِ القرآن ، الذي هو كلامُ الله المُعجزُ للبشر مَبْنى ومَعْنى . قال الله - تعالى ! - ﴿وَإِنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِه، وادْعُوا شُهَدَاءَ كُمْ مِنْ دُونِ الله ؛ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تفعلوا - فاتقوا النَّارَ الَتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(1)﴾ .

وعن طريقِ تُرجمةِ القرآنِ استطاعَ أعْداءُ الإسلامِ والمسلمين أن يُحرِّفوا مقاصدَهُ ، ويدُسُّوا عليهِ ، ويفتَرَوا على الله والرسول .

(1) سورة «البقرة» . الآية 23-24 .

والأمثلةُ على ذلك أكثرُ مِن كثير .

ومن بين هذه التراجم المُضَلِّلةِ تَرْجَمَةُ المستشرِقِ «بْلَاشِيرْ» ، التي استطاعَ أنْ يضلِّلَ بها ضُعفاءَ الإيمان . ومما يؤسف له أنَّ بعض الدعاة إلى الإسلام في بلاد الإفرنج يعملون على فرنجة الإسلام ، وهم لا يشعرون ؛ بل قد يشعرون ! !

اعتراضات وردود

وبعدما أنهينا حديثنا عن دور اللغة في خدمة الثقافة ، بدا لنا أن نذيل هذا الدور بثلاثة اعتراضات متلوة بردودنا على المعترضين بها . وكان بودنا أن يرد على هذه الاعتراضات من له الكلمة العليا والأمر المطاع في ميدان الثقافة وحسن التوجيه ، لأن الكلمة منه أشد نفوذاً في قلوب الناس ، وهم الى أمره أكثر طواعية من يمينه . وقديماً قال الإمام علي ـ رضي الله عنه ! ـ : **«لا رأي لمن لا يطاع»** . ولكن لما أصبح العالم العربي أحوج الى كلمة صريحة من كاتب صريح يصف بها ذاء مجتمعه ، ثم يعالجه بترياق الحق المبين ؛ مزقنا ـ اذ ذاك ـ حجب الصمت الرهيب ، وصدعنا بما هو أحق أن يقال ، وأجدر أن يكتب ، ولو أغضب ذلك كثيراً من المنقادين لأهوائهم . و «الحق يعلو ولا يعلى عليه» .

أ ـ مع دعاة العامية
ب ـ مع دعاة البربرية
ج ـ مع دعاة الفرنسية

أ. مع دعاة العامية

ـ قالــوا ـ :

إن اللغة العربية لصعبة جداً ، وإن تعلمها يستغرق وقتاً طويلاً وجزءاً كبيراً من عمر الإنسان ، فيجب علينا أن نحل محل اللغة الفصحى اللغة العامية ، التي هي لغة الأم والأب ، ولغة المجتمع الشعبي ، وهي التي يتعلمها الطفل ـ في أول نشأته ـ تعلماً تلقائياً ، لا إكراه عليه ، مثلما يتعلم القعود والحبو ، والوقوف والمشي ، والأكل والشرب . وبذلك يكون قد وفر جزءاً كبيراً من الوقت ، يتعلم أثناءه مختلف العلوم والفنون ، والصنائع اللازمة لحاجة الأمة ، وبالتالي يسهل تعميم التعليم على جميع أفراد الشعب ، وبثه في جميع النفوس بدون استثناء . وينبغي أن نستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، (1) اذ تلك أسهل كتابة ، وأجمل خطاً ، وأطوع نطقاً ، وأكثر انتشاراً في عالم الصناعة والحضارة .

---

(1) إن معظم كتاب عصرنا ليخطئون في استعمال معمولي «استبدل» ، فيضعون المستبدل =

ـ قُلْنَا ـ :

لم تكن الدعوة الى اللغة العامية حديثة عهد في بلادنا ، أو بنت ساعتها في مجتمعنا ؛ بل جذورها قديمة جداً في صفوفنا . وقد امتدت الينا أطنابها من الغرب ومن الشرق أيضاً . فأما أصحاب هذه الفكرة في الغرب فهم المستشرقون والمبشرون الذين قد اتخذوا إحلال العامية محل العربية وسيلة لثلاثة أغراض أساسية :

الغرض الأول : القضاء على الدين الإسلامي ، الذي نزل به القرآن ، الناطق بلسان العرب ، المكتوب بلغتهم ، المحفوظ بارادة الله : ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاه قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(1) ﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ، وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(2) .

الغرض الثاني : التوصل الى فهم عادات الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) ، والاطلاع على أخلاقهم واتجاهاتهم الفكرية والشعورية ؛ عن طريق مدلولات اللغة العامية ؛ حتى يتسنى لسلطات الاستعمار تشتيت صفوف هذه الشعوب ، والاستيلاء على

= به مكان المستبدل ، اذ يقولون ـ مثلاً ـ : «نستبدل الحروف العربية بالحروف اللاتينية» . وهذا خطأ ، لأن هذه الصيغة تقتضي عكس ما أرادوه . قال الله ـ تعالى ! : ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!﴾ . (سورة «البقرة» الآية 61) .

(1) سورة «يوسف» . الآية 2 .

(2) سورة «الحجر» . الآية 9

أفكارهم وأوطانهم بكل سهولة ، لأن اللغة العامية أسهل لدى الافرنج من اللغة الفصحى ؛ سواء من حيث النطق أو الفهم . والدليل على ذلك أننا نجد كثيراً من المبشرين والمعمرين يتكلمون اللهجات العامية . بطلاقة في جميع مستعمراتهم العربية ؛ بخلاف اللغة الفصحى ؛ فإننا قلما نجد منهم من يتكلمها بدون رطانة في نطقه ، ولُكْنَةٍ في لسانه . وهذه حقيقة لا ينبغي أن ينكرها أحد . ويبدو ذلك جلياً في المحاضرات التي يحاول بعض المستشرقين ، أن يلقوها باللغة الفصحى في مدرجات الجامعة ، وقاعات المحاضرات .

الغرض الثالث : الوجهة السياسية ، التي يستهدف بها هؤلاء المستشرقون والمبشرون تشتيت الأمة العربية ، وتمزيق الوحدة الإسلامية . ومن أجل هذا الغرض لقيت هذه الدعوة الخطيرة صدراً رحباً من الافرنج ، فراحوا يجدون في البحث عن اللهجات العامية ، وينشطون لتدوينها واستخراج قواعد لها ، وكتابة البحوث والرسائل والأطروحات الجامعية عنها ، ثم الدعوة الى الاهتمام بها ، وإحلالها محل التبجيل والتكريم ، والتحريض على التخصص في لهجاتها وحروفها المستعارة من اللاتينية . وكان وراء هذه الأغراض الثلاثة ، دوافع لا تعود الى اللغة العامية نفسها ؛ بل تعود الى أهداف أبعد من تلك الأسباب اللغوية ، التي اتخذها الافرنج حجة يتسترون وراءها ، ويختفون خلفها ، «**لحاجة في نفس يعقوب**» .

وأما أصحاب هذه الفكرة في الشرق فهم عرب من أبناء

جلدتنا وإخوتنا من الرضاعة . وقد أخذ بهذه الفكرة ـ أيضاً ـ زمر من أبناء المغرب العربي ، الذين يصدق عليهم قول طرفة بن العبد البكري :(1)

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً
عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

وقد دفع بهؤلاء المغاربة وأولئك المشارقة الى اعتناق هذه الفكرة المتطرفة ثلاثة دوافع : انتفاعية ووهمية أيضاً .

•

الدافع الأول : الجهل بقواعد اللغة العربية وبأسرارها السرمدية ، وتوهم صعوبة تعلمها . والنفوس ميالة ـ بالطبع ـ الى ما هو أسهل ، ونفارة مما هو أصعب . و «**من جهل شيئاًعاداه**» .

الدافع الثاني : التودد والتزلف من هؤلاء المشارقة وأولئك المغاربة الى أسيادهم المستشرقين والمبشرين والسياسيين من الافرنج ، الذين قد نادوا بهذه الفكرة ـ أولاً ـ وعملوا على نشرها في أقطار العالم العربي ـ ثانياً ـ ثم الى المتفرنجين من العرب على وجه العموم ، ومن السياسيين والوجهاء منهم على وجه الخصوص .

---

(1) من البحر الطويل

وغرضهم ـ بهذا التودد والتزلف ـ الحصول على مناصب سياسية ، والظفر بوظائف ثقافية ، تحرسها قوة السلطة وتوحي بها رجال السياسة .

الدافع الثالث : بروز كوامن العنصرية والعرقية ، التي طالما اختزن اوارها في نفوس العنصريين والعرقيين : من سكان المشرق والمغرب ، الذين يريدون ـ بصفة مباشرة ـ أن يمحوا معالم العرب ، ويقوضوا صروح الإسلام .

ولولا أمهم العربية التي ألقمتهم ثديها ، وغذتهم لبنها ، وعلمتهم سحر الكلام ، لما استطاعوا أن يحاربوها بأقلامهم السيالة ، ويطعنوا في عرضها بألسنتهم اللاذعة . وهذا مصداق قول معن بن أوس المزني :(1)

فَيَا عَجَباً لِمَنْ رَبَّيْتُ طِفْلاً ... أُلَقِّمُهُ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

ولم يكتف بعض المشارقة والمغاربة باعتناق فكرة العامية فحسب ؛ بل راحوا يدعون الى إحلال الألفاظ العجمية محل الألفاظ العربية بدون تحفظ .

---

(1) من البحر الوافر

قال محمد المبارك - في كتابه «فقه اللغة وخصائص العربية» :
«ومن مظاهر هذه النزعات المنحرفة الدعوة الى إغراق العربية في سيل من الألفاظ الأعجمية ، دون قيد أو شرط ، سواء أكنا نستطيع أن نجد لها لفظاً يقابلها - جديداً أو قديماً - أم لم نستطع ، ودون أن نراعي أوزان العربية وحروفها وأصواتها . إن هذه الدعوة تشبه الدعوة الى فتح الأبواب مشرعة أمام البضاعة الأجنبية ، دون قيد ، بحجة رفع مستوى الحياة الاجتماعية . وهي دعوة تخفي وراءها - طبعاً - قتل البضاعة الوطنية ، والقضاء على الاقتصاد القومي . إن «الشعوبية» بذاتها تريد إذابة العرب وأخلاقهم ومكارمهم وعقائدهم القومية في شعوب أخرى وعقائد غريبة عنهم ، كذلك الذي حدث في العصر العباسي : من نشر «المزدكية» أو «الإباحية» وما الى ذلك .

انها شعوبية جديدة في الميدان اللغوي . إن الدافع الى مثل هذه الدعوة دافع شعوبي ، أحياناً تكمن وراءه الرغبة في القضاء على خصائص العرب اللغوية وتراثهم اللغوي ، الذي يتميزون به ويعتزون ، وقد يكون الدافع عند بعضهم - أحياناً - حب الظهور بمظهر التقدمية ، والتبرؤ من الجمود والرجعية . ولذلك قد نستغرب إذا لم ننتبه الى هذا الدافع ، حين نجد هذه النزعة عند بعض المنتسبين الى الثقافة القديمة . إنه لشعور بالنقص ، ومحاولة تعويضه بالنقيض ، أولئك هم النفاجون والمدفعون بدافع التنفّج (SNOBISME)»(1) .

ولعلنا لم نكن من المغالين عندما نصارح الناس بما هو أحق أن يتبع ، وأجدر أن لا يستهان به ، **فنقول** : ليس من صالح العرب - في مشارق الأرض وفي مغاربها - أن تحل اللهجة العامية محل اللغة العربية . وذلك لعدة أسباب أساسية ومنطقية أيضاً .

السبب الأول : كثرة اللهجات العامية ، واختلاف صيغ أساليبها وأبنية مفرداتها ، حسب اختلاف الأقطار العربية ، التي طالما وحدتها اللغة الفصحى ، وجمعت شمل سكانها شرقاً وغرباً . فعامية أي قطر منها تخالف عامية القطر الآخر . بل توجد في القطر الواحد عدة لهجات مختلفة . ولنضرب مثلاً بجملة : **«كيف أحوالك»** . فهي مفهومة المدلول لدى كل عربي ؛ بقطع النظر عن القطر الذي ينتمي اليه ، لأنها عربية فصيحة ، لا يختلف معناها باختلاف الأقطار العربية . أما مبناها في اللغات العامية ، فيختلف باختلاف لهجات الأقطار والأقاليم والبلدان . فهي في عامية المصريين : «ازَّيَّكْ ؟» وفي عامية الجزائريين : «واش راك ؟» ، وفي عامية المغارب: «كي راك داير ؟». وكذلك لفظة«عمامة»- في اللغة الفصحى - مفهومة المدلول لدى كل عربي بيد أن لفظها - في اللغات العامية - يختلف حسب اختلاف الأقطار والأقاليم والبلدان أيضاً . فهي في عامية الشاميين ; «لفة» ، وفي عامية التونسيين :

---

(1) محمد المبارك . فقه اللغة وخصائص العربية - بيروت . مطبعة دار الفكر 1968م . ص : 239 .

«كشطة» ، وفي عامية الجزائريين : «شاش» ، وفي عامية المغاربة : «رزة» . وكذلك لفظة «الآن» ، فهي في اللغة الفصحى مفهومة المدلول عند كل عربي أيضاً ؛ بقطع النظر عن القطر الذي ينتمي اليه ؛ بخلاف اللفظة العامية الموازية لها في معناها ، فإنها تختلف باختلاف الأقطار والأقاليم والبلدان كما تقدم . فهي - مثلاً - في عامية اللبنانيين «هلاً» وفي عامية التونسيين «توّا» ، وفي عامية الجزائريين «ضروَك» ، وفي عامية المغاربة «دابا» . وأمثال هذه الألفاظ المتحدة المعنى المختلفة المبنى ، أكثر من كثير في اللغات العامية واللهجات المحلية ؛ بل هناك ألفاظ قد تعد نابية المعنى في عرف بعض الأقطار ؛ بينما هي سائغة في عرف بعض الأقطار الأخرى .

فمن خلال هذه الأبنية والصيغ ، يتضح لنا - جلياً - ان اللغة الفصحى أقرب وسيلة للمفاهمة ، عند مخاطبة العربي لأخيه كتابة أو قراءة أو مشافهة . فما علينا سوى أن نتجنب الشاذ والغريب من ألفاظها ، وأن نوفق بين مفرداتها عند تركيب الجمل وصوغ الفقرات . فالفصحى أسهل عند المشرقي من عامية المغربي ، وهي عند المغربي أطوع من عامية المشرقي . . . وهلم جرا .

وهناك سؤال وجيه ، لا بد من إلقائه على من يدعو الى استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية وهو مايلي : ماهي اللهجة العامية التي يمكن لنا أن نجعلها مكان اللغة الفصحى ؟ أهي مطلق اللهجات على وجه العموم ؟ أم هي لهجات المشرق دون المغرب ؟ أم العكس ؟ بل

أهي لهجة مصر ؟ أم لهجة العراق ؟ أم لهجة الشام ؟ أم لهجة الخليج والبحرين ؟ أم لهجة الحجاز ؟ أم لهجة الكويت ؟ أم لهجة ليبيا ؟ أم لهجة تونس ؟ أم لهجة الجزائر ؟ أم لهجة المغرب الأقصى ؟ أم . . . أم . . . ؟ أم . . . ؟ وإذا أهمل هذا السؤال ولم يحظ بأي جواب ، فإننا سنحاول الإجابة عنه حسب المستطاع .

1 ـ لو عوضنا اللغة الفصحى من كل لهجة عامية في جميع الأقطار العربية ـ دون استثناء أية لهجة في أي قطر كان ـ لارتكبنا بذلك العمل أفظع الأخطاء ؛ إذ يصبح كل عربي منفصلاً عن أخيه ، بسبب انفصال قطره ولهجته عنه . ويضحي كل منهما لا يفهم لغة الآخر ولهجته ؛ إلا بوساطة الترجمة ؛ إن أمكن ذلك .

إذ لو بعث السوري ـ مثلاً ـ برسالة الى أخيه المصري ، لم يتمكن هذا الأخير من فهم مضمون هذه الرسالة ؛ إذا لم يجد من يحسن لغة القطر السوري . والعكس بالعكس . ولو بعث التونسي برسالة الى أخيه الجزائري ، لم يتمكن هذا الأخير من فهم محتوى هذه الرسالة ؛ إلا عن طريق مترجم تونسي ، أو عن طريق شخص آخر يتكلم لغة التونسيين . والعكس بالعكس . وهكذا بالنسبة إلى سائر الأقطار العربية شرقاً وغرباً .

2 ـ لو وقع اختيارنا على إحدى اللهجات العامية ـ دون غيرها من عامية الأقطار العربية الأخرى وأحللناها محل العربية الفصحى ـ لكنا من المخطئين أيضاً ، بسبب ما يتمخض عن هذا الاختيار من

نعرات اقليمية ، وحزازات عنصرية ، واتجاهات سياسية ، إذ كل قطر يفضل عاميته ، ويرى أنها هي الجديرة بأن تحل محل اللغة الفصحى . فإذا لم نتجنب هذين الخطأين نكون ـ لا شك ـ قد وقعنا في هوة ، وقطعنا حبل المفاهمة والاتصال ، الذي طالما ربط أفكار الشعوب العربية ، وحفظ تاريخهم وآدابهم ومقوماتهم وثقافاتهم عبر العصور والأجيال . وما هذا الحبل المتين سوى لغتهم الفصحى ، التي بذهابها ـ لا قدر الله ! ـ ستحل الكارثة العظمى والطامة الكبرى بجميع العرب في دينهم ودنياهم .

فإن قال قائل : إن اللغات الحية ، مثل الفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية ، والاسبانية ، والايطالية . . . وهلم جرا ، كلها قد حلت محل اللغة اللاتينية ، ولم ير الناطقون بها وصمة في هذا الحلول ؛ بل هم عنه راضون واليه مطمئنون .

قلنا : ذاك الرضى وهذا الاطمئنان متمخضان عن دافعين اثنين ، **أحدهما** اكتمال هذه اللغات في مفرداتها ، وصيغها وأساليبها ، واقتدارها على التعبير عن شؤون حياة الناطقين بها ، وعن مقتضيات عصرهم ومجتمعاتهم ، بخلاف عاميتنا فإنها لم تكتمل ـ بعد ـ في مفرداتها ، وصيغها ، وأساليبها ، وهي ـ أيضاً ـ عاجزة عن التعبير عما في الضمير بدقة .

ثانيهما : فصل الدين المسيحي عن الحكومات الافرنجية ، وبذلك انفردت اللغة اللاتينية بلسان هذا الدين عن سائر اللغات الحية واللهجات الحديثة ، بخلاف الدين الإسلامي فلا يمكن أن

يفصل عن الحكومات الإسلامية ، التي مصدرها ـ في التشريع والعبادات ـ قرآن عربي غير ذي عوج .

السبب الثاني : فقر اللغة العامية وعجزها عن أداء مهمتها ، من حيث دقة التعبير عن مختلف المعاني بأساليب ملائمة ، حسب كل مقام : علمياً ، وفقهياً ، وأدبياً . وهذه حقيقة ظاهرة ملموسة لدى كل مثقف نزيه . ولنضرب لذلك مثلاً بذكر جملة من جمل اللغة العامية الجزائرية ، ثم نردفها بما يقابل معناها بجملة من جمل اللغة العربية الفصحى ، لكي يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود . جاء في المثل ـ باللغة العامية ـ: **«دَلَّاعْتَيْنْ مَا يْجِيَوشْ تْحَتَ الطَّابِقْ»** . وجاء ما يقابل هذا المعنى ـ بالعربية الفصحى ـ : **«لا يجمع سيفان في غمد»** . والفرق بين النصين ـ العربي والعامي ـ ظاهر من وجهين ، **الوجه الأول** : أنّ النصّ العامي يدل على معنى واحد ، وهو أن الإنسان لا يمكنه أن يضع تحت إبطه **«دلاعتين»** اثنتين . وهذه العبارة كناية عن عدم تمكن الإنسان من تحمل ما لا طاقة له . أما النص العربي فيحتمل معنيين اثنين ، **أولهما** : كون الغمد يصنع على قدر سيف واحد ، طولاً وعرضاً ، فلا يمكن أن يسع غمد واحد سيفين اثنين .

ـ **ثانيهما** : أنّ الغمد إذا وضع فيه سيفان ، فإن كلا منهما يؤثر في حد الآخر ، ويذهب برونقه . ولهذين السببين **«لا يجمع سيفان في غمد»** واحد . وهذا المثل فيه كناية تشتمل على مدلولين اثنين ،

أحدهما : أنّ الإنسان لا يمكن له أن يجيد عملاً ثانياً قبل أن ينتهي من العمل الأول ، أي : لا يستطيع أن يجمع بين عملين اثنين في آن واحد : **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾**[1]

ثانيهما : أنّ العمل الواحد لا يكتب له الإنجاز والنجاح ما دام يباشره شخصان متحدان في الرتبة والاتجاه «**أنا أمير ، وأنت أمير ، ومن يسوق هذه الحمير ؟!**» .

الوجه الثاني : أنّ النص العامي يعوزه دقة المعنى المراد . إذ يصح في الأذهان ـ علماً وعملاً ـ أن يجعل الإنسان تحت إبطه أكثر من «**دلاعة**» واحدة . ولا سيما إنْ كانت «**الدلاعات**» صغيرة الحجم . وصاحب الإبط طويل الذراعين . أما النص العربي فقد عبّر عن دقة المعنى المقصود . وبالاضافة الى ذلك فإن جل المفردات العامية مأخوذ من العربية الفصحى ، وما تبقى منها مأخوذ من اللغات العجمية الطارئة على البلدان المستعمرة . أما اللغة البربرية فإن وجودها في العامية قليل جداً . وتكاد تنحصر في أسماء الأماكن والبقاع . ثم صيغت جملة هذه المفردات المأخوذة من العجمية والعربية والبربرية في أسلوب عامي ركيك ، لا يف بالتعبير عن خلجات الضمائر وتصورات الأفكار ؛ مثلما تفي بذلك لغة الضاد .

السبب الثالث : كون اللغة العامية ليست لغة كتابة ولا لغة قراءة ، وقد اشترطنا في لغة الثقافة أن تكون صالحة للكتابة والقراءة

(1) سورة «الأحزاب» . الآية 4 .

لأنها وسيلتان أساسيتان للتعليم والتعلم ، في جميع المجتمعات الطالبة للثقافة في العصر الحاضر . وهناك اقتراحان اثنان ، قد أدلى بهما جماعة ، كل منهم يحبذ اللغة العامية الى الناس ، ويقف بجانبها وقوف المحامي المنحاز والمتعصب العنيد .

الاقتراح الأول : أن تكتب العامية بالحروف العربية .

الاقتراح الثاني : أن تكتب بالحروف اللاتينية . ولم يدر هؤلاء أن اقتراحيهم هذين لا يمكن تطبيق أي منهما بنجاح ، وإذا طبق أحدهما أو كلاهما ـ جدلاً ـ ، فلا يمكن أن نحصل على أية نتيجة ، تعوذ بالخير والصلاح على أمتنا ، التي طالما سعت الى لغة موحدة تجمع شملها ، وتنضج عقلها ، وترهف شعورها ، وتقوّم أخلاقها .

والسبب في عدم إمكان هذا التطبيق أن هناك موانع كثيرة ، تقف في سبيل كل من يحاول فرض هذين الاقتراحين ؛ سواء بالنسبة الى الحروف العربية ، أو الحروف اللاتينية .

فأما موانع كتابة العامية بالحروف العربية ، فهي كما يلي ، أولاً : مخالفة الحروف العربية للأصوات الناطقة باللهجات العامية في المدلول ، لأن الحروف ما هي سوى رموز للأصوات السابقة عليها في الوجود . ولما كانت مقاطع أصوات العرب محصورة في ثمانية وعشرين مقطعاً ، جعلت رموزها ثمانية وعشرين حرفاً ، ليطابق كل حرف مقطعاً من مقاطع الصوت ، ويدل عليه . وليست كذلك مقاطع اللهجات العامية ؛ إذ هي أقل عدداً بالنسبة الى

الحرف العربي ، وأخطأ نطقاً بالنسبة الى مدلوله . ويبدو لنا ذلك جلياً في لفظة «قال» - إذ أن القاف في بعض اللهجات العامية ينطق بها أصحابها همزة ، فتصبح اللفظة عندهم «آل» . وفي بعض اللهجات ينطقون بها كافاً ، فتصبح اللفظة عندهم «كال» . وفي بعض اللهجات ينطقون بها قافاً مقعودة مثل حرف الجيم لدى بعض المشارقة ، فتصبح عندهم «ڨال» . . . وهلم جرا .

ثانياً : إن اللغة الفصحى تتغير معاني ألفاظها بتغير حركات أواخرها ، وتنوب حروف الضمائر فيها عن أسماء الذوات . وليست كذلك اللهجات العامية ، فإن النحو العربي لا يمكن أن ينطبق عليها بأية حال من الأحوال .

ثالثاً : صعوبة التواضع على قواعد ثابتة ، لرسم الألفاظ العامية وكتابتها بالحروف العربية . فنذكر - على سبيل المثال - لفظة «قالي» باللغة العامية هل تكتب بلامين مفككتين : «قاللي» ، مثل «قال لي» حسب قاعدة فك الإدغام في مثل هذه الألفاظ ؟ أو تكتب بلام واحدة مشددة «قالّي» ، جرياً على قاعدة الإدغام ؟ ثم هل تحذف الألف التي بعد القاف ، عملاً بالقاعدة الصرفية : «إذا التقى ساكنان حذف ما سبق ؟» . أو تبقى ثابتة الشكل كما هي مرسومة في المثال المتقدم ؟ ويجري مجرى اللفظة السابقة كلمة «ألي» باللغة العامية مقابلة لكلمتي «الذي» و «التي» في اللغة الفصحى . . . وهلم جرا .

رابعاً : إن اللغة العامية لا يوجد فيها ضمير المثنى ، ولا

ضمير المؤنث ، مثلما هما موجودان في اللغة الفصحى لفظاً وخطاً .

وأما موانع كتابة العامية بالحروف اللاتينية فتتلخص ـ زيادة على ما تقدم ـ في مانعين اثنين ، **أحدهما** : عدم وجود وجه الشبه ـ البتة ـ بين مقاطع العامية القابلة للاستعراب ، وبين الحروف اللاتينية الغارقة في خضم الاستعجام ، بالنسبة الى تلك المقاطع ، سواء من حيث المبنى المنطوق ، أو من حيث المعنى المقصود . وهذا ما جعل كتابة بعض الذين قد حاولوا تطبيق هذا الإدعاء شبه ألغاز ، لا تقرأ بسهولة . وإذا قرئت لا يفهم معناها . ومن بين أولئك المحاولين سعيد عقل ـ من المنتمين الى مدرسة أنيس فريحة ـ إذ قد كتب كتابه «**ياراه شعر**» بالحروف اللاتينية ، بعدما أضاف اليها سبعة رموز جديدة ، بيد أنها من جنس تلك الحروف . وبعدما أضاف اليها ـ أيضاً ـ بعض الإشارات والعلامات الخاصة ، محاولاً بذلك ـ عبثاً ـ تأدية معاني الأصوات العامية ، التي لا وجود لمدلولاتها في الحروف اللاتينية . ثم طبع هذا الكتاب ببيروت سنة 1961م . وقد أضحت هذه المحاولة الفاشلة موضوع السخرية والتهكم ، في مجالس العلماء والأدباء ، بمشارق الأقطار العربية وبمغاربها .

ثانيهما : إن رسم اللغة العامية بالحروف اللاتينية يذهب بروحها الكامن في صيغها ومقاطعها المستعربة ، وبالتالي يفقد المتكلم سر التعبير عن أفكاره وعواطفه ، التي هي العنصر الأساسي لشخصيته . كيفما كان جنسها في هذا الوجود . ولعلنا لسنا بمخطئين

للهدف ، إن نحن اسمينا لغة كهذه بـ «لغة المسخ» إن صح هذا التعبير : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلَى قَوْمٍ ؛ حَتَّى يُغَيِّروا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] .

السبب الرابع : ضياع تاريخنا ، وأدبنا ، وديننا ، وثقافتنا ، وجميع تراثنا المدون في بطون أمهات الكتب ، منذ أربعة عشر قرناً . لأن استبدال اللغة العامية باللغة العربية يتمخض عنه ـ بعد مدة من الزمان ـ سوء فهم هذا التراث المكتوب باللغة الفصحى. وبالتالي يضيع ويصبح نسياً منسياً ؛ إلا عن طريق الترجمة ، التي لا تُبقي على النص العربي رونق الأسلوب ، ولا تفي له بالمعنى المطلوب ؛ ولا سيما معاني القرآن الكريم والحديث الشريف ، اللذين بني عليهما صرح دين الإسلام .

السبب الخامس : ندور المعاني الراقية والألفاظ الدقيقة في اللغة العامية . وليس فيها من الاستعارة ، والكناية والاشتقاق ، وجميع أوجه البلاغة ـ ما يخول للمنتصرين لها أن يضبطوها بقواعد اللغة الفصحى ، التي قد بلغت ذروة الكمال في إيجاز اللفظ وكثرة المعنى . وإذا كانت ملكة أية لغة لا تحصل سوى بالمران والممارسة ، فإن ملكة اللغة العامية قد حصلت بالفعل عندنا ، إذن فلا حاجة بنا الى جعلنا قواعد نضبطها بها . لأننا لم نخف عليها الضياع ، مثلما خاف أسلافنا ذلك على اللغة الفصحى في الزمان القديم ، فجعلوا لها قواعد ليضبطوها بها ، وليحصنوها من الهجنة العجمية .

---

(1) سورة «الأنفال» . الآية 53 .

السبب السادس : صعوبة استقصاء كل اللهجات العامية ، المنتشرة في جميع الأقطار العربية ، واستعصاء ، جمع مفرداتها وصيغها . وفي نظرنا أن عملاً كهذا ـ إن لم يكن مستحيلاً ـ فـ **«دونه خرط القتاد»** . وذلك لأمرين اثنين ، **أحدهما** : أنّ هذا الاستقصاء يستلزم التتبع الدقيق لمراحل اللغة العامية ، وتطور لهجاتها في كل قطر وفي كل صقع قديماً وحديثاً . وهذه محاولة ـ لا شك ـ غير مثمرة . لأن أغلب اللهجات العامية القديمة قد ضاعت ، وانقرضت بانقراض أهلها ، الذين لم تكن لهم حروف عامية ، يدوّنون بها لهجاتهم في القواميس والمعاجم ، وفي أمهات الكتب ، مثلما دونوا مفردات اللغة العربية ، ومختلف صيغها وأساليبها .

ثانيهما : أنّ هذا الاستقصاء ـ أيضاً ـ يتطلب تكوين لجنة لغوية علمية متألفة من جميع الأقطار العربية ، ليتسنى لها فهم مختلف اللهجات العامية ، التي هي بصدد استقصاء مفرداتها وصيغها كيفما كانت ، وحيثما بانت . وفي نظرنا أن تأليف لجنة كهذه يعد من قبيل المستحيل ، لأن أغلب شعوب الأقطار العربية متعصبون للعربية الفصحى ، وأنهم يرون فيها لحمة دينهم وكمال شخصيتهم وأصل شرفهم . ثم إن اللغة الرسمية لحكومات هذه الشعوب هي العربية الفصحى أيضاً تلك اللغة التي لولا حبهم لها وشغفهم بها ما عادوا إليها ؛ بعد استقلالهم راغبين فيها . ولولا ذلك ما جعلوها شعار ثقافتهم ، بعد ذهاب المستعمرين لأقطارهم شرقاً وغرباً . إذ لو

نبذوها واستبدلوا بها غيرها لأصبحوا كـ «**الباحث عن حتفه بظلفه**» .

وأما ادعاء هذا الفريق بأن «اللغة العربية صعبة جداً ، وأن تعليمها وتعلمها يستغرق وقتاً طويلاً وجزءاً كبيراً من عمر الإنسان . . . » ، فهو إدعاء باطل ومردود من وجهين اثنين ، **أحدهما** : عدم ثبوت أية تجربة قد قام بها أصحاب هذا الإدعاء في ميدان تعليم اللغة العامية قديماً وحديثاً ، إذ لا يجوز لنا أن نستصعب شيئاً أو نستسهل آخر إلا بعد إجراء التجربة على كل منهما ، ولا سيما في الأشياء التطبيقية . مثل التعليم والتعلم .

ثانيهما : انتشار اللغة العربية في جل أصقاع العالم بسرعة ، ما توازيها سرعة . ثم كثرة التأليف بها والترجمة اليها في جميع الفنون المختلفة . ولولا سهولة في ألفاظها ، وسلاسة في أساليبها ، وثروة في معانيها ، ما تسابقت الى تعلمها الأجيال ، ولا عمت جميع الأقطار الاسلامية، شرقاً وغرباً . ويكفيها فخراً أنها وسعت معاني القرآن الكريم ، وطاوعت حضارات الأمم السالفة ، واتسعت لآداب الفرس وفلسفة اليونان ، بل قد ثبتت ثبوت الطود الشامخ ، أمام جميع التيارات الزاحفة والمعوقات المتتالية . ويبدو ذلك ـ جلياً ـ في صفاء اديمها ، وقوة روحها على مدى العصور ومر الأجيال .

وأما كون الحروف اللاتينية «أسهل كتابة، وأجمل خطاً ، وأطوع نطقاً . . . » ، فسيجيب عن ذلك المستشرق الأمين ،

والرسام الكبير ، ذو الريشة الفتانة والذوق السليم **«إتْيان ديني»** (Etiennc DINET) ، الملقب بـ «الحاج ناصر الدين» ، **قال** - رحمه الله ! في كتابه «الحج الى بيت الله الحرام» - : ومع ذلك فقد شن بعض المستشرقين هجمات أشد خطورة ، بالنسبة الى ما أعلنوه من حرب على الكتابة العربية . وبدعوى اهتمامهم الذي يشعرون به إزاء الجنس العربي ، قد أرادوا أن يزفوا اليه - بدلاً من الحروف العربية - هدية ، تتمثل في الحروف اللاتينية ، التي يعتبرونها أكثر طواعية من حيث العمل . وقد سررنا بمظاهر من السخط قد ظهرت في المشرق (العربي) ، من جراء هذه الفكرة (في الغرب الافرنجي) . ونحن نوجه نداءنا الى جميع المحبين للجمال ، دون تمييز بين الأجناس وبين الأديان ، لكي يسخروا من هؤلاء المستشرقين ، الذين قد أدى بهم كرههم الشديد للقرآن - الذي هو أول ملهم للخط العربي العديم النظير - الى تصور مشروع يعتبر انتهاكاً لحركات التراث المقدس بحق . ولعل الكتابة العربية هي أروع نمط زخرفي قد تخيله الإنسان . وهي الوحيدة التي نستطيع أن نقول عنها - بدون مبالغة - أنها تكتسي روحاً ملائماً لصوت الإنسان عند التعبير عن الأفكار ، كما تمتزج بالنغمات الموسيقية ، دون أن تستعير شيئاً من العالم الخارج عن محيطها ؛ ولو كان ذلك المستعار أكثر زخرفة . ثم تبدو هذه الحروف كأنها اختزال لأعمق تقلبات القلب ، واختلاجات الضمير . انظروا الى هذه الحروف كيف تنطلق من اليمين الى اليسار ، في خط أفقي بسرعة ، في قوة

حيوية داخلية . ثم تلتف على نفسها منحنية ، بكيفية سرية شغفية . ثم تنتصب لتقف ـ فجأة ـ جامدة مستقيمة مختالة . وبعد لحظة تستأنف سباقها الجموح . ثم تنبسط ويتداخل بعضها في بعض ، في روعة طريفة وإبداع ممتع ، ذاهبة بالخيال صوب أحلام مهتاجة ولهانة . وليس ضرورياً أن يكون الإنسان متضلعاً في اللغة العربية ، أو خبيراً نافذ البصيرة في فن الخط ، ليستمتع بخالص الامتياز ، الذي تتسم به أشكال الحروف العربية ، وبالانفعال الشديد الكامن في خطوطها المنحنية ، بل كل نفس فنان تستبطن بسهولة أسرار هذه الحروف . وفن الخط العربي ، الذي لم يسبق له مثيل ، والذي نبع من الإسلام ، والذي صير المثل الأعلى في أمته ملموساً ، قد انطوى تحت نيره ـ الذي كاد يكون دينياً بحتة ـ جميع ما كان معداً لحمله ، أو للاحاطة به كاطار له ، مثل فن الهندسة المعمارية ، والأنماط الزخرفية الأخرى ، التي اضطرها الخط العربي أن تتبنى أسلوب أشكال ونظام حروفه .

إن الكتابة العربية هي الأم لجميع الفنون الإسلامية ، تلك الأم العجيبة ، التي أراد المستشرقون أن يُودوا بحياتها ! .

أيها الهواة! أيها المحبون للجمال !ارفعوا رؤوسكم ، والعنوا ـ مع المسلمين ـ أولئك الذي يحاربون مثل هذه الكتابة ذات الجمال ؛ إذ أرادوا أن يستبدلوها بالحروف اللاتينية الباردة ، التي

هي ـ في الوقت نفسه ـ قد مجها الذوق الأوروبي الحديث ، فأراد الأوربيون تطويرها وتحويرها . والشيء العجيب انهم يريدون أن يدخلوا عليها عناصر مستقاة من الكتابة العربية ـ ، وهي غير صالحة للإدخال ـ مثل حذف حروف الاستهلال ، (المعبر عنها بحروف التاج) ، وقطع حرف «أو» (O) ، أو «آس» (S) ، المكتوبتيْن باعوجاجَ ، أو استبدال انحناء حرف «آس» (S) بحرف بسيط ، مثل حرف «س» في المشرق العربي ، أو وضع الأجزاء الدقيقة والغليظة من الحروف اللاتينية ، وضعاً مخالفاً لوضعها العادي ، محاذاة للحروف الكوفية ذات الزوايا والزخارف ، وهلم جرا . . . .

ولندع الجانب الجمالي ، الذي يحتل ـ دائماً ـ المرتبة الأخيرة في الاهتمامات العصرية ، ولننظر الى الجانب العملي ، الذي يعتمد عليه «**الفاندال**» المخربون . ونذكر على سبيل المثال اننا لسنا بمستطيعين أن نحكم على النتائج العلمية ، الناتجة عن تبني الحروف اللاتينية في «**تركيا**» ، لأننا نجهل اللغة التركية . ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى أن هذه البلاد قد تخلت عن حروف ليست ـ هي ـ حروفاً تركية بالأصالة ، بل هي حروف عربية مستعارة ، واستبدلت بها حروفاً أخرى لاتينية بالأصالة ، وليست هي تركية ، بل ـ مستعارة من بلاد أجنبية أيضاً . أما الحروف العربية فقد نبعت من روح اللغة العربية ذاتها . والحروف المهذبة المنتمية الى لغة مهذبة يتعذر استبدال غيرها بها بأي وجه كان . والكتابة العربية ـ مثل الكتابة اللاتينية ـ ليست سالمة من العيوب من حيث الوجهة العلمية ، بيد أنها تحتوي على مزايا كثيرة ومتعددة ، لا يمكننا استقصاء دراستها في

هذا الفصل الذي تتعدى اطاره ، بيد أننا نشير الى تفوق طفيف من حيث الوجهة العلمية ، ذلك أن اللغة ـ التي تكتب من اليمين الى اليسار ـ تابعة للحركات الطبيعية لليد ، وتبعاً لذلك أن التعب والإنفعال سيصبحان أقل بكثير (بالنسبة الى الكاتب) . وخوف الكتاب من مَعْصِهم وتشنج أعصابهم هو أقل في الكتابة العربية منه في الكتابة اللاتينية ، الذاهبة من اليسار الى اليمين ، وهذا الإتجاه مخالف لحركات اليد الطبيعية(1) ، وبعبارة مختصرة : إن الكتابة العربية وضعت لليمينيين ، وإن الكتابة اللاتينية وضعت للعسر . وقد فهم ذلك جداً «ليوناردو دافنتشي» (Leonard de VINCI) الفنان اللاتيني العبقري ، اذ قد كتب مخطوطاته من اليمين الى اليسار بنفس الاتجاه الذي اختارته العرب . ونشير ـ أيضاً ـ الى تفوق أكيد من حيث الفهم السريع للجملة العربية . لعله قد يكون عيباً عندما يشار في الكتابة العربية الى الحركات بعلامات لا تستعمل إلا نادراً ، بيد أنه تنشأ ـ في مقابلة ذلك ـ فائدة عظيمة : ذلك أن الحروف الصوتية الثلاثة للمادة التي لها أهمية كبرى ، تظهر ـ في الجملة العربية ـ حالاً للعيان ، وإن الفهم العام لمعنى الجملة هو فوري تقريباً . أما فكرة كتابة العربية بالحروف اللاتينية ـ التي هي جد

---

(1) عند جر القلم من اليسار الى اليمين لا بد من تقلص عروق الإبهام وانقباض راحة اليد ، وهذا شيء متعب جداً بالنسبة الى الكاتب ، أما جر القلم من اليمين الى اليسار فإنه لا يكلف جهداً مطلقاً .

(اتيان ديني)

متكلفة ومعقدة للغاية(1) ، فإنها خرجت من خيال هؤلاء المستشرقين .

ونلاحظ - في النهاية - أن الحروف اللاتينية تحتفظ - دائماً لدى العرب - بشيء قليل من النبرات الصوتية المختلفة في اللغات الأوروبية ، التي تعلمها العرب (وليست هي في ألسنتهم بالأصالة) . أما الحروف العربية فإنها وضعت مباشرة وفق النبرات الصوتية المسموعة من العرب بالاصالة . وفي الحقيقة ليس من المعقول محاولة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، وليس من المعقول - أيضاً - محاولة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية»(2) .

---

(1) من أجل وضع الثلاثة عشر حرفاً في أبجدية اللغة العربية التي ليس لها وجود في أبجدية اللغة اللاتينية ، لا بد من الالتجاء الى وضع نبرات صوتية ووضع علامات مختلفة وقد تحقق بهذا الوضع عدم الملاءمة . (اتيان ديني) .

(2) E. DINET (Alhadj Nacer ed Dine) et Elhadj Sliman Ben Ibrahim Baâmre.

Le Peleringe à la maison sacrée d'Allah

France-Algerie, Librairie Hachett P 178-183.

(تعريب محمد بن عبد الكريم ومحمد بلقراد)

وبانتهاء هذا النص الصريح نختم ردنا على **«دعاة العامية»** .

ولعل بذلك يؤمن من كفر باللغة العربية وبحروفها ، ويزداد إيماناً ـ مع إيمانه ـ من آمن بها وبالناطقين بها . وإن كانت الأخرى ، فلسنا بمسيطرين على أفكار الناس وأذواق البشر . **﴿فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر﴾**[1] .

---

(1) سورة «الكهف» . الآية 29 .

ب ـ مع دعاة البربرية

ـ قـــالــوا ـ :

إن اللغة البربرية هي لغة شعوب افريقية الشمالية بالأصالة والوراثة . وما دون ذلك من سائر اللغات الأخرى فهو طارىء ودخيل ، يجب أن يزول ويمحى . وعلى هذا الأساس فكل من العرق والأرومة يجبرنا على العودة الى لغتنا البربرية ، والاجتهاد في البحث عن رموزها وحروفها القديمة ، فنستعملها وسيلة للقراءة والكتابة ؛ مثلما كان يستعملها أجدادنا قديماً . وإذا لم تف هذه الرموز بمقتضى حياة العصر الحديث اخترعنا لها ـ حينئذ ـ رموزاً إضافية مكملة لنقصها مبنى ومعنى . ولعل كتابة اللغة البربرية بالحروف اللاتينية أنسب شكلاً ، وأفضل نطقاً .

قُلْنـا ـ :

إنَّ علماء التاريخ لم يثبتوا لنا أن لغة البربر هي أول لغة تكلم بها سكان الشمال الافريقي ؛ وإنما أقصى ما أثبتوه لنا أن هذه المنطقة قد سكنتها عدة أجناس بشرية . ومن بين هذه الأجناس قبائل البربر ، الذين تقدمهم العنصر الزنجي ، النازح من وسط الصحراء ؛ كما أشار الى ذلك المؤرخ اليوناني الكبير ، المعروف بـ **«هيرودوتس»**(1) . وقد أنهى أحد الباحثين الفرنسيين هذه الأجناس ـ التي مرت بالشمال الافريقي قديماً وحديثاً ـ الى اثنين وعشرين جنساً(2) .

ويقول الأستاذ ابراهيم حركات : «ومهما يكن من شيء فإن البربر ليسوا ـ هم ـ سكان المغرب الأولين ، فإن ظواهر الحياة البشرية تمثلت في هذه البلاد منذ مئات الآلاف من السنين ، كما دلت على ذلك اكتشافات **«مشطا أفلو»** التي أثبتت آثار شعوب بدائية قد انتقلت من مدينة العصر الحجري العتيق الى العصر الحجري

---

(1) هيرودوتس هو من أشهر رحالة اليونان ، ومن أكبر مؤرخيهم . يلقب بـ «أبي التاريخ . قد جال وطاف في العالم المعروف والمكتشف في عصره ، ولا سيما مصر ، والعراق ، وفينيقيا . له «كتاب التاريخ» وهو من أهم المراجع القديمة ، وأوثقها لمعرفة أحوال البشر الأقدمين . وقد دون فيه أخبار الأمم السالفة وأساطيرها . ولد سنة 484 ، وتوفي سنة 425 قبل المسيح .

(2) DIDIER, L. (General). L'Algerie et le developpement de sa civisation. Oran Imprimerie Jeanne-d'Arc; 1982. T.p 16, 17.

الحديث . وهذه الشعوب قد اكتسحت المغرب الأوسط ، وامتدت عبر المغرب الأقصى ، وتخطته الى **«جزر الخالدات»** ، فيما استنتجه **«بالوت»** (BALOUT)(1) .

فعلى ضوء ما تقدم يتضح لنا أن اللغة البربرية ليست هي أول لغة تكلم بها سكان الشمال الافريقي . وإنما هي لغة من بين شتى اللغات التي مرت بهذه المنطقة . وكلنا نعلم أن اللغات تختلف نطقاً ؛ باختلاف الأجناس والعصور والأماكن ؛ من جراء تأثير الطبيعة والمجتمعات في أفكار الإنسان ومشاعره . هذا بالنسبة الى تفنيد زعم من زعم أن اللغة البربرية هي لغة سكان الشمال الافريقي بالأصالة . **أما** بالنسبة الى تفنيد زعم من زعم أن سكان الشمال الأفريقي هم بربر بالأصالة ، فيتمثل في ثلاثة عناصر : عنصر لغوي ، وعنصر تاريخي ، وعنصر الحكم والبت ؛ بعد التحليل والمقارنة .

العنصر اللغوي : يبدو لنا أن لفظة **«بربر»** - عند العرب - مشتقة من لفظة «بربرة» التي هي في لسانهم - تدل على الصياح ، والثرثرة ، والهذيان ، والتخليط في الكلام مع غضب ونفور . جاء في **«لسان العرب»** : «والبربرة كثرة الكلام ، والجلبة باللسان .

---

(1)ابراهيم حركات . المغرب عبر التاريخ . الدار البيضاء (المغرب الأقصى) ، مطبعة السلمي 1965م . ج 1 . ص 25 .

وقيل : الصياح . ورجل بربار» . إذا كان كذلك ، وقد بربر ؛ اذا هذى . (وقال) : الفرّاء : البربري الكثير الكلام بلا منفعة . وقد بربر في كلامه بربرة ؛ اذا أكثر . والبربرة الصوت ، وكلام من غضب . وقد بربر ـ مثل ثرثر ـ فهو ثرثار . وفي حديث علي ـ كرم الله وجهه ! لما طلب اليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر ، فامتنع ـ : «قاموا ولهم تَغَذْمُرٌ (تخليط في الكلام) وبربرة» . والبربرة التخليط في الكلام مع غضب ونفور . ومنه حديث أحدُ : «**فأخذ اللواء غلام أسود ، فنصبه ، وبربر** . . . »(1) .

وقال ابن خلدون : «والبربرة ـ بلسان العرب ـ هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال : بربر الأسد ، إذا زأر بأصوات غير مفهومة»(2) .

فمن خلال هذه الفقرات يتضح لنا ـ جلياً ـ أن مدلول لفظة «**بربر**» عند العرب له وجه الشبه عند اليونان مبنى ومعنى ؛ كما سيأتي .

---

(1) ابن منظور ، محمد . لسان العرب . فصل «الباء» حرف «الراء» .

(2) ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، بيروت . مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني . 1967م . ج 1 ص 176 .

العنصر التاريخي : ذكر محققو المؤرخين أن البربر أناس شاميون من أصل كنعاني ، يعرفون ـ في كتب التاريخ ـ بـ «**الضاعنين**» نزحوا حوالى سنة مائتين وألفين قبل الميلاد الى الديار المصرية ، فاستولوا على مصر السفلى وبرزخها . وفي أثناء مكثهم هناك فرت طائفة منهم ـ بسبب ظلم أحد الفراعنة ـ وانتشرت في سواحل افريقية الشمالية (بما فيها سواحل القطر الجزائري) . وذلك حوالى سنة ثلاثمائة وألف قبل الميلاد . وعرفت هذه الطائفة ـ في كتب التاريخ ـ باسم «**أمازيغ**»(1) . وقد لقبها «**بطليموس**» (2) ـ قديماً ـ بـ «**مازيغ**» . وأول من لقبها بـ «**البربر**» اليونان . ومعنى ذلك عندهم «**صوت الألثغ**» . ثم أطلقوا هذه الكلمة على كل من لم يتكلم لغتهم، أو ليس هو من جنسهم ، أو هو خارج على طاعتهم

---

(1) أمازيغ مفردها مازيغ ، ومعنى اللفظة : نبيل ، وشريف ، وصاحب سطوة ورئاسة وامتياز .

(2) بطليموس ولد في صعيد مصر ، وتوفي قرب الاسكندرية حوالي سنة 167 ق . م . كان عالماً من علماء الهيئة والتاريخ ، والجغرافيا ، واليه تنسب «النظرية البطليموسية» في هيئة الأفلاك ، القائلة بأن الأرض ثابتة لا تتحرك ، وأن الفلك هو الذي يدور حولها . وقد أبطل هذه النظرية «كوبيرنيك» (Copérnic) البولوني الفلكي المشهور ، والمتوفي سنة 950 هـ = 1543م . وقد برهن على دوران الكرة الأرضية على ذاتها وحول الشمس أيضاً . ومن أشهر مؤلفات بطليموس «آثار البلاد» ، و «المجسطي في علم الهيئة» . ولفظة «مجسطي» معناها الأكبر . وقد عربه حنين بن اسحاق المولود سنة 195 هـ = 810م ، والمتوفى سنة 259 هـ = 873م .

وسلطانهم . وقد سار على دربهم الرومان من حيث مدلول هذا اللقب ـ عندما استولوا على منطقة الشمال الافريقي وغيرها من مناطق العالم . ثم أقر العرب الفاتحون هذا اللقب أيضاً ، ولم يروا فيه نبزاً بالألقاب ، لشيوعه وذيوعه فيمن لقبوا به . وقد حاول بعض المؤرخين أن يرجع بنسب البربر الى جدهم بّر بن قيس بن عيلان(1) . وذكر ابن خلدون ـ أيضاً ـ أن ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ! ـ قد تزوج بعد سارة بقنطورة بنت يقطان الكنعانية ، فولدت له ستة أولاد ، منهم يقشان ، الذي كان من نسله جيل البربر»(2) . وذكر في موضع آخر أن «البربر قبائل شتى من حمير ، ومضر ، والقبط ، والعمالقة ، وكنعان ، وقريش . تلاقوا بالشام ولغطوا ، فسماهم افريقش «**البربر**» ، لكثرة كلامهم . وسبب خروجهم ـ عند المسعودي والطبري والسهيلي ـ أنّ افريقش استنجد بهم لفتح افريقية ، وسماهم «**البربر**» . وينشدون من شعره :(3)

بَرْبَرَتْ كَنْعَانُ لَمَّا سقْتُهَا   مِنْ أَرَاضِي الضَّنْكِ لِلْعَيْشِ الْخَصِيبْ(4)

فنستنتج مما تقدم ـ أعلاه ـ أن البربر من أصل كنعاني ، وأن الكنعانيين عرب ساميون في جنسهم ولغتهم .

---

(1) ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب العبر ـ مطبعة مصر . 1936م . ج 1 ص 18 . ج 6 . ص 89 وما بعدها .

(2) المصدر السابق . ج 1 . ص 58 .

(3) من بحر الرمل .

(4) المصدر السابق . مطبعة بيروت . ج 6 . ص 184 ,185 .

عنصر الحكم والبت : ولعل كثرة اختلاط سكان الشمال الافريقي مع مختلف الأجناس المتوالية على احتلال بلادهم ؛ وتبدل الطقس ، وقساوة الطبيعة ؛ كل ذلك قد أصبح سبباً في تبربر لغتهم العربية ، وتلاثغ ألسنتهم بعد فصاحتها . وفي إمكاننا أن نأتي ببعض البراهين ، لعلها تكون خير مرشد لمن ضل السبيل في بحثه عن عروبة سكان الشمال الافريقي لغة وجنساً .

البرهان الأول : ثلث مفردات اللغة البربرية عربي النزعة .

البرهان الثاني : عدم وجود ما يقابل المفردات العربية ، أن أريد حذفها وتعويضها باللغة البربرية . وبهذه المناسبة أسوق قصة طريفة ومقنعة في آن واحد .

كنت يوماً جالساً في دكان أحد الأصدقاء ، وكان بصحبتي رجلان جزائريا المولد والمنشأ ، وكان أحدهما متعصباً للبربرية ، والآخر للعربية . فقال الأول : إن اللغة البربرية هي لغة سكان الجزائر بالأصالة ، إذن ، فلماذا لا تكون البربرية هي لغتنا الرسمية بدل العربية الطارئة علينا ؟ فأجابه صاحب العربية : إن البربرية - يا أخي ! - لضيقة الصدر جداً ، وإنها لعاجزة عن أداء المعاني وتصورات الأفكار . فرد صاحب البربرية - بحماس - : لا ، لا ، هذا غير صحيح ، أليست لغة البربر مثل لغات سائر الأجناس والشعوب ؟! . فأجابه معاكسه - بهدوء - : هوّن عليك ، يا أخي ! إني سائلك عن شيء بسيط جداً ، افتجيبني عنه بصراحة ؟ فقال

المسئول : هات سؤالك ! هيا ! عجل به ! فقال السائل . أرجوك ـ يا سيدي ـ أن تسرد علينا أيام الأسبوع بالبربرية ، فبهت المسئول ، ولم يجد جواباً يرد به ، لأن أيام الأسبوع في اللغة البربرية عربية في مبناها ومعناها . ثم سكت السائل هنيهة ، وطلب من معاكسه ـ مرة أخرى ـ أن يسرد عليه أسماء الأعداد ، فأخذ في سردها بقوله : «يوّن[1] ، سين[2]» . ثم توقف ، لأن ما فوق ذلك من سائر الأعداد ـ في اللغة البربرية ـ كله باللغة العربية مبنى ومعنى . وليس لهذه ولا لتلك ما يقابلها من الألفاظ في اللغة البربرية . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عروبة البربر بالأصالة . إذ لا يمكن لأي جنس من البشر أن يستبدل لغة أجنبية بلغته الأصلية دون أن يبقي ما يقابل المستبدل في المستبدل به لفظاً ومعنى . وذلك سنّة جارية في جميع اللغات الحية الحديثة ، المتفرعة عن اللغتين اللاتينية ، واليونانية القديمتين . فانهما ما زالتا محتفظتين بأصل الاشتقاق ومعناه .

ومما يؤيد هذا البرهان قول الاستاذ ابراهيم حركات : «أصبح من المؤكد لدى العلماء أن اللهجات البربرية تعود في أصلها الى لهجة واحدة ؛ كما أثبت علماء أصول اللغات الصلة الوثيقة بين البربرية واللغات السامية والحامية . ومن المعلوم أنه يوجد تشابه كبير بين

---

(1) أي : واحد .

(2) أي : اثنان . ولعل لفظة «سين» محولة عن لفظة اثنين .

السامية والحامية ، من حيث الشكل وحركات الإعراب . فمهما حاول بعض علماء الأجناس والمؤرخين الأجانب أن يربطوا البربر بأصل أوروبي ، فهم لا يستطيعون أن ينكروا الصلات اللغوية بين البربرية واللغات المذكورة ، حتى لغة الطوارق ـ التي عدها بعضهم أقل اللهجات البربرية تأثراً بالعربية ـ وجدت بها أصول عربية ، ترجع الى 200 سنة ق . م أي : قبل دخول العرب الى المغرب بثمانمائة سنة . فالكتابة البربرية المنقوشة على يد الطوارق في هذا العهد تماثل ما وجد منقوشاً على الأحجار في حدود الصحراء العربية . وقد وجدت عدة آثار للخطوط الحميرية بالشمال الافريقي ، فقد عثر على قبر مكتوب فوقه بالحميرية في «**قرطاجنّة**» منذ قرون عديدة ، كما اكتشفت نقوش حميرية في بعض مداشر تونس وغيرها»(1) .

البرهان الثالث : وجد حروف في اللغة البربرية ، لا وجود لها سوى في اللغة العربية . ثم لا نكاد نجد حرفاً في هذه يعسر النطق به في تلك . مثل حرف «الضاد» و «العين» ، و «الغين» ، و «الطاء» ، وجميع الحروف التي تفردت بها «لغة الضاد» . وبالاضافة الى الواقع الملموس في اتحاد كلتا اللغتين في بعض الجمل والمفردات ، فإننا نود أن نطلع القراء على رأي الشيخ أبي القاسم ، الذي أثبته الزاهري في مجلة «**المقتطف**» حيث قال : « . . . ولو أن

(1) ابراهيم حركات . المغرب عبر التاريخ . ج 1 . ص 27-29 .

ابن خلدون نظر الى اللغة البربرية لكان له رأي آخر في أصل البربر ، وإذن ، لوجد فيها ما يدل على عروبة البربر ، أو ما يدله ـ في الأقل ـ على أصلهم السامي . فهذه اللغة البربرية هي عربية ، لا في ألفاظها ومفرداتها فقط ، (بل) ـ أيضاً ـ من حيث تراكيبها وحروف المعاني فيها . ولا تزال تلازمها بعض خصائص اللغة السامية الأولى . فضمير الغائب فيها ـ مثلاً ـ هو حرف «السين» ، فهم يقولون : «كتابس» ، أي : كتابه أو كتابها . ويقولون : «معس» ، أي : معه أو معها ، نحو ذلك . وحرف «العين» لا يوجد في كلمة بربرية . وكل كلمة فيها عين فهي عربية مبربرة ، أو أن هذا الحرف لا يوجد في كلمة بربرية الا في النادر القليل . ولقد قالوا : إن اللغة السامية الأولى يعبر فيها عن ضميرالغائب بحرف «العين» ، وأنها لا عين في كلمة من كلماتها . ومخارج الحروف في البربرية هي عربية خالصة ، حتى أنك لا تجد فيها حرفاً غير عربي . ومن العجب أن هذه اللغة هي ذات «ضاد» كـ «الضاد» العربية تماماً . فالفعل المضارع المسند الى المخاطب يختم فيها ـ دائماً ـ بحرف ينطقه كثير من البربر «ضاداً» عربية فصيحة . وهنالك أسماء بربرية فيها هذه «الضاد» ، منها «آضيل» : العنب . «أحبوض» : التمر في لغة . «تيحبوض» : البطن في لغة أخرى «آفرضال» : العظيم أو الكبير . «أمتشيض» : التين . «ايضارن» : الأرجل أو الأقدام . . . إن هذه البربرية ليست لغة مستقلة بنفسها . وإنما هي عربية في أصلها ، قد تحرفت بطول الزمن ؛ حتى

أصبحت أكثر بعداً من العربية الفصيحة من هذه اللهجات العامية المختلفة ، التي تتكلمها الشعوب الناطقة بـ «الضاد»(1) .

البرهان الرابع : سرعة انتشار اللغة العربية في البربر بمجرد امتزاجهم بالعرب الفاتحين لبلادهم . وقد نبغ منهم في أوائل الفتح رجال ، قد ضربوا بسهم وافر في ميدان البلاغة والفصاحة . ومن بين هؤلاء الرجال القائد العظيم طارق بن زياد البربري ، الذي ما زالت خطبته مضرب الأمثال في حسن السبك ، ومتانة الأسلوب ، وشدة الوقع . وهي التي ألقاها على جيوشه بعدما عبر بهم البحر الى أرض الأندلس ، وعندما أحس بجيوشه أوجسوا خيفة . ونصها مذكور في جل كتب الأدب ، وفي أغلب السِّير والفتوحات الإسلامية .

ولعل أكبر دليل يدل على عروبة البربر بالأصالة أنهم لم يتأثروا بأية لغة من لغات الأجناس الكثيرة ، التي مرت ببلادهم ، مثلما تأثروا باللغة العربية ، التي أصبحت عنوان شرفهم ، وشعار عروبتهم .

فان قال قائل : إن السبب في ذلك يعود الى اعتناقهم الدين الإسلامي الذي جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولغة القرآن والحديث عربية .

---

(1) الزاهري ، محمد سعيد . «هل البربر عرب ؟» . مجلة المقتطف (يونيو 1934م) . ص 705-709 .

قلنا : هذا القول ليس بحجة كافية ، لأن سكان الشمال الافريقي قد اعتنقوا ـ قبل الإسلام ـ أدياناً كثيرة ، ومع ذلك لم يتأثروا بلغات تلك الأديان التي دانوا بها قروناً عديدة . ثمّ إنّ هناك من البربر الذين لم يعتنقوا دين الإسلام في أوائل الفتح ، ومع ذلك فإن لغتهم كانت ـ ولا تزال ـ تحتوي على كثير من المفردات العربية . ومما يفند قول هذا القائل ـ أيضاً ـ أن هناك شعوباً كثيرة في العالم قد اعتنقت دين الإسلام ، وليس يوجد في لغاتهم مفردات عربية بمقدار ما هو موجود في اللغة البربرية .

البرهان الخامس : وجود التشابه الخَلْقِي والخُلُقي المشترك فيهما العرب والبربر قديماً وحديثاً . **قال** ابن خلدون : «والبربر لم يكن لهم انتحال للمباني والصنائع والمدن . وبهذه الصفة يشبهون العرب»(1) . وقال «**غوستاف لوبون**» : «وقد تعد روح البربر قريبة ـ جداً ـ من روح العرب ، على أن يقاس حضريو أولئك وبدويوهم بحضري هؤلاء ، وبدويهم . ولطرق الحياة تأثير كبير في أخلاق جميع الأمم . فإذا تماثلت طرق حياة الأمم تماثلت هذه الأمم في التفكير والسير في الغالب . والبربري الحضري كالعربي الحضري : جلد على العمل ، صبور ، حازم ماهر ، والبربري البدوي كالعربي البدوي : طلوق ، محارب ، قنوع ، طواق للمشاق ، ختار للأعداء . ولا يختلف البربري عن العربي . . .

---

(1) ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب العبر . . . ، ج 6 . ص 636، 637

ويظهر مما تقدم خطأ كثير من المؤلفين المعاصرين ، الذين رأوا أن يفرِّقوا بين العرب والبربر ، فزعموا أن البربر أهل حضر وزراعة ، وأنّ العرب أهل بدو ، وانتهوا الى قولهم : ان البربر أهل للتمدن ، وأن العرب غير أهل له . وذلك عندما تكلموا عن سكان الجزائر»(1) .

ومن أخلاق البربر الاباء والانفة . وذلك ما دفع بهم الى الذود عن حياض وطنهم ، فلم يرضوا أن يطأطئوا رؤوسهم أمام أي جنس وطئت أقدامه تراب بلادهم قهراً . وهذه - لا شك - خلة حميدة من خلل العرب التي رسخت في نفوسهم ، واتصفوا بها من المهد الى اللحد . والبربري كثير التقليد لأخيه العربي ، أنًى ما كان ، وحيثما بان ؛ كما أنه شديد الاعتزاز بشيم العرب العرقية وشعائرهم الدينية .

البرهان **السادس** : وجود أسماء وألقاب عربية ، تسمى وتلقب بها البربر قبل الفتح الإسلامي بكثير قال ابن خلدون : «ومن الأسماء العربية عند البربر موسى بن صالح - من «**بني يفرن**» - الكاهن المشهور . ويقال : من «**غمرة**» . وتاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير»(2) .

---

(1) غوستاف لوبون . حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ، 1956 م . ص 251، 250 .

(2) ابن خلدون ، عبد الرحمن كتاب العبر . مج 6 . ص 588 .

فلو لم يكونوا عرباً ما اسموا أبناءهم بأسماء عربية صريحة ؛ مثل صالح هذا ، وزياد والد طارق بن زياد الفاتح لبلاد الأندلس .

البرهان السابع : استنكاف سكان الشمال الافريقي من تلقيبهم بـ «البربر» ، وتبرؤهم من هذا اللقب : بل كانوا ـ ولا يزالون ـ ينتمون الى العرب ، ويعتزون بالانتساب اليهم .

فلا نكاد نجد أحداً منهم لا ينتسب الى اصل عربي ، بل قد يذهب بنسبه الى قبيلة قريش ، او الى سلالة الرسول ﷺ ! ـ حتى ان بعضهم قد صنع مأدبة ، وأطعم الناس ، عندما ثبت انه عربي الارومة ، وليس ـ هو ـ من جنس البربر .

قال ابو العرب : «وحدثني محمد بن محمد بن خالد القيسي ، قال : صنع البهلول(1) طعاماً ، فأحضر جماعة من اصحابه ، فقالوا له : يا ابا عمرو ! لم صنعت هذا الطعام ؟ وليس عندك شيء يصنع لاجله الطعام ! فقال : اني كنت خائفاً من ان اكون من البربر ، لما جاء فيهم من «الحديث»(2) فسألت عن أصلي من يعلمه ،

---

(1) البهلول : هو ابو عمرو البهلول بن راشد الرعيني ، سمع من مالك بن انس ، والليث ابن سعد ، والحارث بن نبهان ، ويونس بن يزيد ، وسمع ـ بافريقية ـ من ابن انعم ، ودوسى بن علي بن رباح ، وغيرهم واخذ عنه سحنون ، وعون بن يوسف ، وغيرهما توفي سنة 183هـ = 799م .

(2) وقد أورد بعض المحدثين والمؤرخين والجغرافيين احاديث نبوية في ذم البربر ، ومن =

فأخبرت : اني لست من البربر ، فأحدثت لذلك هذا الطعام ، شكراً لله عز ! وجل ! اذ لم اكن من البربر» (1) .

فقد علل البهلول كراهة انتسابه الى البربر بما ورد من أحاديث نبوية في ذمهم . ولعل هذه الاحاديث ليست صحيحة ، بل هي موضوعة ومكذوبة عليهم ، قد جاءت بها حزازات واحَنٌ ، ما انزل الله بها من سلطان . وقد تبلورت كلها في هجاء من هجاهم ، واخرجهم من سلالة البشر ، حيث انشد فيهم : (1)

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَـوْمِي فَقُلْتُ لَهُ : أَبَا الْبَرِيَّـةِ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ حَكَمُوا

أَنَّ الْبَرَابِرَ نَسْلٌ مِنْكَ قَالَ : إِذَنْ حَوَّاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا(3)

= بين هؤلاء ياقوت الحموي في «معجم البلدان» ، عند مادة «بربر» وقد اخرج الطبراني في «الاوسط» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه !ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ! قال : البربري لا يجاوز ايمانه تراقيه» .

(1)أبو العرب ، محمد ، طبقات علماء افريقية ، فرنسا . مطبعة باريس ، 1915م . ص 58 ـ أبو بكر ، عبد الله المالكي . رياض النفوس . تحقيق حسين مؤنس . القاهرة . مكتبة النهضة المصرية . 1951م ج1ص 139 .

(2) من البحر البسيط .

(3) وجدتهذين البيتين في «معجم البلدان» لياقوت الحموي . مادة «بربر» . انشدهما اياه ابو القاسم النحوي الاندلسي الملقب بـ «العلم» . وهما من انشاد بعض المغاربة يهجو بهما البربر .

وأما بالنسبة الى ما يفند قول العودة الى اللغة البربرية وكتابتها بحروفها الاصلية القديمة ، فان علماء التاريخ والآثار لم يجزموا ـ حتى الآن ـ بوجود «ابجدية» بربرية النزعة والوضع : بل لم يتوصلوا ـ ابداً ـ الى حل رموز الكتابة القديمة التي عثروا عليها ـ مؤخراً ـ في الشمال الافريقي . والرأي الشائع لدى الباحثين والمؤرخين انها كتابة ليبية ، يرجع اصلها الى عهد الفنيقيين الساميين . ولم يحظ بالقبول الرأي الذي يرى وجود الصلة بين «**الحروف الليبية**» وبين احد انواع «**الحروف السامية**» . التي كانت تستعمل ـ قديماً ـ في الجنوب ، ولا سيما حروف أهل ثمود .

وقد بطل استعمال «الحروف الليبية» في الاقاليم الشمالية بعد الفتح العربي ، ولم يبق لها اثر في يومنا هذا : الا في كتابة بعض الملثمين (**الطوارق**) بقلة . وتسمى هذه الحروف ـ عندهم ـ بـ«تيفيناغ» ، أي : الحروف المنزلة . ولم تزد اصولها على اربعة عشر حرفاً . ولها حركات خاصة ، تسمى بـ«تسيدباكين» ، اي : الدليل على العمل والتوسع .

وليست هذه الحروف حروفاً بربرية ، كما زعم بعض المعاصرين من الافرنج والعرب المقلدين لهم .

وقد جمع خطوط هذه الحروف والكتابات زمرة من الباحثين والمؤرخين نذكر منهم :

- 1 - : «**فيد هيرب**» **(Faidherbe)** **سنة** 1870 م . بعنوان :

(Collection complete des inscriptions numidiques):

ـ 2 ـ : «ج . هاليفي» (J. Halivy) سنة 1879 م . بعنوان :

(Essai d'epigraphic lybique).

وبناء على مضمون هذه الفقرات المتقدمة نستنتج ان اللغة البربرية ليست لغة كتابة ولا قراءة ، لأن حروفها عديمة الوجود قديماً وحديثاً ، والسبب في ذلك ـ كما تقدم ـ ان هذه اللغة لم تكن صيغ مفرداتها بربرية بالاصالة من حيث الوضع : وانما كانت عربية في جوهرها ، ثم تبربرت من جراء اختلاطها بشتى اللغات ، التي جاءت بها اجناس عديدة الى بلادهم في العصور القديمة : كما اسلفنا ذلك في مفتتح «**الرد الثاني**» .

ولو ثبت وجود حروف بربرية لما التجأ بعض علماء البربر الى كتابة لغتهم بالحروف العربية . ومن بين هؤلاء العلماء محمد بن علي ابن ابراهيم السوسي الاوزالي . فقد كتب كتاب التوحيد ـ المسمى ـ بـ «الحوض» ـ بحروف عربية ، ولغة بربرية شلحية . وذلك سنة 1110 هـ . = 1698 م . وكتب ـ ايضاً ـ كتاب «بحر الدموع» في نفس الموضوع ، وبنفس الحروف واللغة . وذلك سنة 1126 هـ = 1714 م . وعلى هذا الطراز كُتبت «رسائل محمد بن تومرت» الفقهية بلغة شلحية وحروف عربية ايضاً .

وممن اعتنى بكتابة اللغة البربرية بالحروف العربية علماء الطائفة الاباضية إبان «**الدولة الرستمية**» . ومن اولئك العلماء الشيخ ابو سهل ، والشيخ يهود بن قريش التاهرتي ، وهما من الاوائل . ومن المتأخرين منهم الشيخ ابراهيم بن سليمان الشماخي ،

الذي كتب عدة كتب باللغة البربرية والحروف العربية . نذكر منها كتاب «غرب افريقية» ، وكتاب «وصف جبل نفوسة» ، وقد كتبه بلهجة قبائل «نفوسة» ، وقام بترجمته ونشره «مونتيلنسكي» (MONTYLINSKI) . وقد طبع النص البربري بالجزائر العاصمة سنة 1885 م . وكان الهدف من كتابة هذه الكتب باللغة البربرية استمالة البربر الى الاسلام . وافهامهم قواعد الدين ، الذي دانوا به ، رغبة فيه ، وهم لاحكامه جاهلون . وقد يكون الهدف من ذلك الوصول الى سلطة سياسية باسم الدين . ونحن لا نرتاب في عروبة الطائفة الاباضية بالاصالة . وبالاضافة الى ما تقدم فان عدم وجود حروف بربرية هو الذي دفع بالافرنج والمتفرنجين الى كتابة هذه اللغة بحروف لاتينية ، كما سيأتي تفصيل ذلك قريباً ، ان شاء الله !

وأما بالنسبة الى تفضيل كتابة اللغة البربرية بالحروف اللاتينية فيتبلور في دوافع كتابة هذه اللغة بتلك الحروف ، وفي أهداف كتابتها بنفس الحروف ايضاً . فاما الدوافع فتتلخص فيما يلي :

الدافع الاول : اعتقاد الافرنج والمتفرنجين ان جنس البربر من اصل لاتيني روماني ، لا علاقة لهم بالعرب ولا بلغتهم . وقد اوحى بهذه الفكرة المخطئة بعض المستشرقين والمبشرين ، الذين طالما راحوا يدسون السم في الدسم للعرب والمسلمين . اجمعين . **وقد** استدلوا على لاتينية البربر ورومانيتهم بنقوش ورسوم ، ما زال بعضهم - حتى الآن - يرسمونها على اوانيهم التي يصنعونها بأيديهم

من مادة الطين ، فاعتقد الافرنج والمتفرنجون ان هذه النقوش والرسوم لها بعض الشبه بزركشة الاواني التي وجدت في «ايطاليا» . وقد غاب عنهم ان هذه النقوش والرسوم لها نزعة مصرية بدون ريب .

وأكثر من هذا انهم يزعمون ان السبب في انحطاط البربر وتأخرهم عن ركب الثقافة وموكب الحضارة هو انتماؤهم الى العرب واعتناقهم لدين الاسلام ، وانهم حينما كانوا ينتسبون الى اللاتينيين والرومانيين ويدينون بدين النصارى ، قد خلقوا ثقافة ، واخترعوا حضارة ، وانجبوا رجالاً نابغين في السياسة والعلم والادب والدين .

ثم يعقب هؤلاء الافرنج والمتفرنجين على منطقهم الفاسد بقولهم : ان من الخير العميم للبربر ـ الذين يرغبون في العلم والتقدم والالتحاق بركب الثقافة وموكب الحضارة الافرنجيتين ـ ان يندمجوا في صفوف اخوانهم ـ بالاصالة ـ النصارى اللاتينيين قلباً وقالباً ، وان يخلعوا عنهم ثياب العروبة ، وينزعوا شعار الاسلام ، ويقطعوا كل ما لهم بهما من صلة ماضياً وحاضراً ، ولم يكتف هؤلاء الافرنج بهذه التكهنات الباطلة والافتراضات المستحيلة : بل راح احدهم ـ وهو «لويس رين» (Louis Rinn) الفرنسي ـ يقرر ان البربر اوزاغ بين الامم والشعوب ، وان اكثرهم «هنود» و «آريون» . وزعم ان عرب «بني هلال» اصلهم «طورانيون» و «آريون» ايضاً .

والدافع الثالث : جهل المتفرنجين لدينهم ومقوماتهم التي طالما اعتزت بها اسلافهم ، وعضت عليها بالنواجذ في السراء والضراء . ثم شعورهم بعظمة الافرنج . وانحطاط العرب ، الذين اصبحوا ـ في نظرهم ـ غير صالحين للاقتداء بهم في جميع ما يمت الى الحياة العصرية . وهذا ما دفع بهؤلاء المتفرنجين الى صهر شخصيتهم العربية الاسلامية في شخصية افرنجية ، مسيحية تارة ، وملحدة تارة أخرى . فمثلهم كمثل من يستر وجهه ويكشف عورته .

الدافع الرابع : ايحاءات اجنبية ، سياسية ، استعمارية ، تخريبية : كلها قد اجتمعت وتقمصت في اغراض نفعية ومصالح شخصية لهؤلاء المتفرنجين النفعيين ، الذين اتخذوا ـ ولا يزالون يتخذون ـ «اوروبا» قبلتهم في كل ما هب ودب من سلوكهم وتصورات افكارهم ؛ بل جعلوا خبزهم رهيناً بارضاء اسيادهم الافرنج وبالامتثال الى ايحاءاتهم الشيطانية . وقد غاب عن هؤلاء المغفلين ان ذلك الخبز معجون بصديد الذل والامتهان ، مغموس في دم كرامة العروبة والاسلام ، تلك الكرامة التي قد تنكّر لهاابناؤها المتفرنجون ، ثم ذبحوها ، وقدموها قرباناً لمن دس لهم ولاسلافهم السم في الدسم !!

وأما الاهداف : فيمكن تلخيصها في هدفين اثنين :

الهدف الاول : هدف ديني ، وهو تمسيح اجيال البربر وتنصيرهم ، ثم ادماجهم في زمر النصارى المسيحيين بصفة غير مباشرة وبطريقة بسيكولوجية : اذ ما من لغة الا ولها مظاهر تظهر وتتبلور فيها ، ومن ابرز مظاهرها الاساسية حروفها التي تكتب بها . فكل من يرغب في تعلم اية لغة من لغات البشر لا بد له من أن يعمد ـ اولاً ـ الى تعلم حروفها . ودفع ابناء البربر الى تعلم الحروف اللاتينية يفضي بهم الى معرفة اصل اشتقاقها وجنس البشر الذي تنسب اليه .

فإذا عرف اولئك الابناء ان الحروف التي تكتب بها لغتهم البربرية هي لاتينية النسبة ، تيقنوا ـ عندئذ ـ ان هذه اللغة لاتينية المنزع ، لان ارتباط اللغات بحروفها بمثابة ارتباط السّداةِ باللحمة والروح بالجسد .

الهدف الثاني : هدف سياسي ، وهو عزل الشخص البربري عن اخيه العربي ، وصرم ما بينهما من صلات دموية ، وعرقية ، وخلقية ، ولغوية ، وفكرية ، وشعورية ، ودينية ، تلك الصلات التي طالما جمعت شملهما وضمت اشتاتهما ، وجعلت منهما جسداً واحداً ، اذا اصيب عضو منه «**تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى**» .

وأول من اتخذ «**الحروف اللاتينية**» أداة للتعبير عن أفكار البربر بلغة بربرية جل المستشرقين وعامة المبشرين من الافرنج .

وقد اتخذوا هذا العمل ليكون لهم وسيلة ايجابية ، يندسون بها في صفوف المجتمع البربري ، من اجل التوصل الى فهم عوائده واخلاقه ، ومن اجل ادراك اتجاهاته ومقومات شخصيته . وبذلك يسهل عليهم ان يكيدوا له بطريقة سلمية ديبلوماسية ، ظاهرها الرحمة ، وفي باطنها العذاب الاليم . ويسهل عليهم - ايضاً - احتلال بلاده ، والاستيلاء على افكاره ومشاعره . وبالتالي يتيسر لهم ان يبثّوا بذور الشقاق بينه وبين اخوانه العرب بالاصالة ، الذين طالما جمعهم واياه جنس واحد ، وشعور واحد ، ودين واحد ، وتفكير واحد ، ووطن واحد .

فبهذا العمل اصبح اولئك المستشرقون والمبشرون مطبقين لسياسة **«فرِّق تسد»** . ومن بين هؤلاء المطبقين **«هانوتو»** **(HANOTEAU)** ، و**«رينيه باسي»** **(Ren'e BASSET)** ، و**«هنري باسي»** **(Henri BASSET)** .

وقد اقتفى اثرهم بعض المتفرنجين من ابناء ملتنا ، وقلدوهم عن غير وعي ولا روية ، نذكر منهم بلقاسم بن سديرة ، وسعيد بوليفا ، ومولود معمري . وقد حاول كل من هؤلاء واولئك ان يجعلوا للغة البربر قواعد نحوية ومقاييس صرفية : بعدما اوصلوا ابجديتها الى اثنين وثلاثين حرفاً : كلها من اصل لاتيني في المبنى والصيغة ؛ ولكنهم سرعان ما باء ظنهم بالفشل ، ولم يحظ عملهم بأي نجاح في ميدان الثقافة . والسبب في ذلك انهم حمّلوا اللغة البربرية ما لا طاقة لها بتحمله ، ووضعوا الحروف اللاتينية في غير ما

وضعت له بالاصالة ، فوقع التنافر بين الدال وبين المدلول .

وقد ساء ظن الجمهور بهذا العمل المهوش ، فأعرضوا عنه كلياً ، وسخطوا على من جاء به ، وعدّوه خطراً على الوطن والدين ، ودوساً لكرامة المواطنين والوطنيين .

ومعظم الشعوب الواعية في افريقية الشمالية ليسوا بمرتابين في ان الهدف من تنازع العامية والبربرية للعربية الفصحى هو جعل الفرنسية لغة رسمية وثقافية في الاقطار الثلاثة : ـ القطر المغربي ، والقطر الجزائري ، والقطر التونسي ـ وفي نظرنا ان السلاح الوحيد ـ لحسم هذا النزاع المغرض والادعاءات الكاذبة والمزاعيم الباطلة ـ هو سلاح الدين الاسلامي ، والاستعانة بهديه ، والتمسك بعرى القرآن الكريم ، الذي **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾**(1) . ذلك السلاح الوحيد ، الذي وقى آباءنا واجدادنا من سموم اعداء الله والوطن طوال أربعة عشر قرناً . ولعل رجال الدول العربية والاسلامية والمسؤولين السياسيين منهم سيدركون هذه الحقيقة ، التي ـ لا شك ـ ستدفع بعزمهم الصارم الى تجنيد طاقاتهم وبذل ما في وسعهم من اجل مصالح الوطن وصلاحه ، ومن اجل جمع شمل الوطنيين والمواطنين على مافيه خيرهم وصلاحهم . وستدفع بهم هذه الحقيقة ـ ايضاً ـ الى اتخاذ يد من حديد لقمع كل متمرد ، سولت له نفسه تفريق هذه الشعوب وتشتيت شملها ـ بعد التئامه ـ باحياء عصر النعرات العرقية والعصبيات القبلية ، او

---

(1) سورة «فصلت» . الآية : 42 .

بالعمل على بث الشقاق وزرع الشكوك في الصفوف؛ طالما تراصت واتحدت في السراء والضراء ، وطالما تمسكت بتعاليم الاسلام ، واعتصمت بحبل الله المتين طوال نضالها المرير وحروبها التحريرية شرقاً وغرباً .

وفي نظرنا أن الدوافع الى تنكر البربر للعرب والعربية يعود الى سببين اثنين . احدهما : ان التوجيه السياسي في اغلب الاقطار الاسلامية يعمل جهاراً وعلانية على محو شعائر الاسلام ، وخنق انفاس المسلمين . وهذا مشاهد للعيان ومعلوم لدى كل مسلم يضيق صدره ولا ينطلق لسانه . وكلنا يعلم ان اللغة العربية قد دخلت منطقة الشمال الافريقي عن طريق الاسلام ؛ مثلما دخلت سائر الاقطار العجمية . فاذا ذهب الاسلام من القلوب فذهاب لغته من الألسنة ليس بمستغرب .

إن العربية كانت محبوبة لدى مسلمي البربر والعجم ؛ عندما كان الاسلام احب اليهم من كل شيء ، ولما ضعف ايمانهم واستولى عليهم الكفر والالحاد ، اصبح كل منهم يبحث عن عرقه وأصالته ؛ حتى ان «**وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية**» ـ بالجزائر ـ انشأت مجلة ، وأسمتها «**الأصالة**» وقد ظهرت صورة «**يوغرطا**» على غلاف اول عدد منها !!

ثانيهما : هزيمة العرب أمام اليهود سنة سبع وستين وتسعمائة والف للميلاد . فقد كونت هذه الهزيمة في نفوس البرابر والاعاجم

المسلمين عقدة النقص تجاه العرب ، فصاروا ينظرون اليهم والى لغتهم نظرة ازدراء واحتقار ؛ بدل ان كانوا ينظرون إليهم نظرة تعظيم وتبجيل ، وبدل ان كان اغلب البرابر والاعاجم المسلمين ينتحلون النسبة الى العرب ، ويفتخرون بانتسابهم اليهم ؛ ولو كان هذا الانتساب منتحلاً ومشكوكاً في صحته . ومهما كان من امر ؛ فنحن على يقين بأن عمل الخير سيكتب له البقاء والدوام ، وان عمل الشر والفساد سرعان ما يتلاشى ، ويذهب في ادراج الرياح . **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾** . (1) وبهذا القدر نختم ردنا على «**دعاة البربرية**» .

(1) سورة «الرعد» . الآية 17 .

ج ـ مع دعاة الفرنسية

ـ قَالُـــــوا ـ :

إن اللغة الفرنسية لغة علوم وصناعات ، وهي سريعة التعلم ، سهلة الفهم ، طيعة المخارج ، ثرية المعنى ، جميلة المبنى ، عالمية السمعة . وقد عاشت بين ظهرانينا ردحاً من الدهر ، ولاكتها السنتنا زماناً طويلاً . فلا نتردد في تفضيلها على اللغة العربية ، وكيف لا ؟!

واللغة الفرنسية هي لسان الموظفين والمثقفين في اقطار المغرب العربي ؛ ولا سيما القطر الجزائري .

ان اللغة العربية لعاجزة ـ جداً ـ عن مقتضيات الحياة العصرية والشؤون الدولية . والدليل على مقدرة اللغة الفرنسية وعجز اللغة العربية ان الطفل يذهب الى المدرسة ، ليتعلم ـ هناك ـ اللغتين : الفرنسية والعربية ، فيتقدم في الفرنسية بسرعة ، ويتعود على كتابتها وقراءتها في مدة وجيزة ؛ بينما هذا الطفل نفسه ـ في اكثر هذه المدة ـ لم يبرح دائرة الحروف الهجائية في اللغة العربية . وها هم الشيوخ الكبار يتأسفون كثيراً على عدم السماح لهم بتعلم اللغة الفرنسية ابان الاحتلال الفرنسي !

وبالاضافة الى هذا كله فان المتعربين فوضويون ، وليسوا بصالحين للحياة العصرية ، التي معتمدها دقة التنظيم .

ـ قُلْنَا ـ :

لا ارتياب في أن مضمون هذا الاعتراض يدعو الى محاربة اللغة العربية حيثما كانت ؛ بل يدعو الى الكفر بحروفها وتراكيبها ، والى الالحاد عن تعابيرها واساليبها ، ولم نعلم ـ قديماً وحديثاً ـ دعوة أنكى وأضر على العروبة والاسلام ـ في مشارق الارض ومغاربها ـ من هذه الدعوة الخطيرة . واذا كان كل من اللهجتين ـ العامية والبربرية ـ نابعاً من صميم المجتمع العربي بالاصالة ، ومتفرعاً ـ كما تقدم ـ عن اللغة العربية بالوضع والاشتقاق ؛ اذا كان هذا صحيحاً ـ ولا ريب عندنا في صحته ـ فان اللغة الفرنسية ـ هي الاخرى ـ نابعة من صميم المجتمع الفرنسي ، ومتفرعة ـ ايضاً ـ عن اللغتين اللاتينية واليونانية .

اذن ، فما علاقة اللغة الفرنسية بالمجتمع العربي بالاصالة وما فائدة استبدال هذه اللغة بـ «لغة الضاد» ؟! . والجواب عن هذين السؤالين سيكون واضحاً جداً ضمن دوافع وأهداف ، سنوردها قبل أن نشرع في الرد على مزاعيم هؤلاء المعترضين . **أما الدوافع** ففي امكاننا أن نجملها في خمسة .

الدافع الأول : الجهل باللغة العربية من حيث الدال والمدلول والمبنى والمعنى . وهذا الدافع مشترك بين الفرنسيين وبين المتفرنسين. وهو ليس بمستغرب من كلا الطرفين،لانه قد جاءنا من اصله ، واتانا من منبعه . وما جاءمن اصله فلا سؤال عن علته. وقديماً قيل : **«من جهل شيئاً عاداه»** .

الدافع الثاني : ان اغلب الوظائف ـ في مجتمعنا وبلادنا ـ قد اصبح رهيناً بمعرفة اللغة الفرنسية ، وان معظم وسائل العيش قد اصبح ـ بعد استقلال المغرب العربي ـ في ايدي المتفرنسين وتحت تصرفهم . وهذا الدافع قد دفع ببعض المتعربين الى التنكر للغة العربية بطريقة غير مباشرة . ويبدو ذلك جلياً في تسابقهم الى تعليم ابنائهم وبناتهم اللغة الفرنسية ، واعراضهم عن العربية اعراضاً يكاد يكون كلياً .

الدافع الثالث : عقدة النقص التي تركها المستعمر (بكسر الميم) في اناس لا اخلاق لهم ، ولا شخصية تمثلهم ، فأصبحوا بمثابة المرأة المطلقة ، تحن ـ غالباً ـ الى زوجها الاول .

الدافع الرابع : خوف المتفرنسين على مصير انفسهم واولادهم ؛ عندما تنتصر العربية على الفرنسية ، وتصبح اداة عاملة في حقل الحياة اليومية .

الدافع الخامس : الايحاءات الاجنبية التي يوحي بها الاجانب السياسيون الى ذوي المصالح الخاصة من المواطنين ، الذين «قد باعوا العين الصحيحة بالعور» .

وأما الاهداف فتتلخص في اربعة .

الهدف الاول : القضاء على اللغة العربية ، والعمل على استئصالها من مجتمع ، قد ألفها وألفته عصوراً مديدة واجيالاً عديدة ، واصبحت ممتزجة به امتزاج المخ بالدماغ ، والقلب

بالأبهرين ، والروح بالجسد ، فلا هو حيث لا هي ، ولا هي حيث لا هو .

الهدف الثاني : القضاء على الشخصية العربية المسلمة ، والعمل على محو مقوماتها التي طالما اعتزت بها ، وحافظت عليها جهدها ، وبذلت النفس والنفيس ، من اجل صون اصالتها وحفظ كرامتها في السراء والضراء .

الهدف الثالث : القضاء على المجتمع العربي المسلم ، والعمل على تقويض اركانه ، وتحويل اتجاهاته السديدة صوب الفوضى والانهيار ، والمسخ والدمار ، اذ ان مجتمع الشمال الافريقي لم يخلقه الله ليكون مظهراً للفرنسية ومرتعاً لاخلاق الفرنسيين أو المتفرنسين ؛ وانما خلقه ليكون مظهراً صادقاً لـ «لغة الضاد» ، ومرتعاً خصباً لاخلاق المسلمين ونوايا المؤمنين . و «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(1) .

الهدف الرابع : القضاء على الدين الاسلامي ، والعمل على انتزاعه من قلوب سكان الشمال الافريقي ، ثم الزج بهم في زمر المسيحيين أو طوائف الملحدين ؛ اذ علاقة اللغة العربية بفهم الدين الاسلامي بمثابة علاقة العلة بالمعلول والعرض بالجوهر . فلا معلول بدون علة ، ولا عرض بدون جوهر ، ولا يفهم الدين الاسلامي فهماً حقيقياً بدون لغة الحديث والقرآن: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين ،**

---

(1) قد تقدم تخريج رواته .

نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين﴾(2) . وبعدما أوردنا جملة دوافع هذا الفريق المعترض وأهدافه ، التي يرمي اليها بالقلب والقالب ؛ احببنا ان نحدد اعتراضاته ومزاعيمه ، ونحصرها في خمس نقاط أساسية ، ثم نشرع في الرد عليها نقطة بعد نقطة .

النقطة الاولى : زعم هذا الفريق ان اللغة الفرنسية لغة علم وصناعة ولغة ثقافة وحضارة .

النقطة الثانية : زعم هذا الفريق أن اللغة الفرنسية سهلة التعلم والتعليم ، سريعة الفهم ، خفيفة في اللسان .

النقطة الثالثة : زعم هذا الفريق ان اللغة الفرنسية قد عاشت بين احضان شعوب الشمال الافريقي زماناً طويلاً . فمن الصعب جداً ان يتخلوا عنها ، وهم في اشد الحاجة اليها ، من حيث مرافق حياتهم اليومية .

النقطة الرابعة : زعم هذا الفريق أن سكان الشمال الافريقي قد تأسفوا تأسفاً شديداً على عدم السماح لهم بتعلم اللغة الفرنسية ابان الاحتلال الفرنسي لاقطارهم .

النقطة الخامسة : زعم هذا الفريق ان المعربين لم يخلقوا للحياة العصرية والتنظيم الاداري : وانما خلقوا للفوضى والبلبلة حيثما كانوا .

---

(1) سورة «الشعراء» الآيات 193- 194 - 195

وقد شاء القدر أن نَسُلَّ سيف الرد ، وان يكون حظ الاجابة عن **النقطة الاولى بما يلي** : ان العلوم والصناعات والحضارات والثقافات ليست هي من اختراع اللغات ، اذ لا يجوز لنا ان ننسب اختراع اي شيء كان الى اية لغة من لغات البشر ؛ سواء كانت شرقية أو غربية ، لان جميع اللغات البشرية ما هي سوى اداة للتعبير عن افكار الامم وشواعرهم رقياً وانحطاطاً ؛ بل ان اللغة نفسها ما هي سوى صناعة لفظية ؛ مثل سائر الصناعات المكتسبة عن طريق التعلم وبوساطة المران والتكرار ، اذ لو كانت اللغة الفرنسية سبباً في الرقي والتقدم والاختراع ـ حسب زعم هذا المعترض ـ لما وجدنا كثيراً من الشعوب المتفرنسين لغة وخلقاً يعيشون في اتياه الفوضى ، ويتخطبون في دياجير الجهل . والادلة على ذلك أكثر من كثير. وأغرب من هذا ان سكان **«كندا»** **(CANADA)** الناطقين باللغة الانجليزية فلا يزالون يصفون مواطنيهم الناطقين باللغة الفرنسية بالعجز والتخلف عن ميدان الصناعة والاختراع . ويعللون ذلك بعجز اللغة الفرنسية عن التعبير ، وقصرها في المدلول . وقد صرح بذلك **«بول بالطا»** مراسل جريدة **«العالم»** في الجزائر ، **قائلاً** : «ونحن نذكر في هذا السياق ما كان يردده علينا بعض سكان ولاية **«كوبيل»** في «**كندا**» اثناء المعرض الدولي ، الذي اقيم في **«مونريال»** منذ بضع سنوات ـ : ان تنظيم المعرض بكل ما يتطلبه من المرافق المادية والموارد البشرية كان بالنسبة الينا عملاً اساسياً ، لأن سكان «**كندا**» الناطقين باللغة الانجليزية لم يفتئوا يرددون على اسماعنا منذ

اكثر من قرن من الزمن بأننا شعب ينقصه روح التنظيم والمقدرة على الادارة التقنية ، التي هي من ميزات التفكير الانجليزي ، وان اللغة الفرنسية انما هي لغة الثقافة والادب ، وليست لغة العلم ، وان الكنديين الناطقين باللغة الفرنسية يصلحون للاعمال الزراعية والمحاماة ، ولكنهم لن يكونوا رجال صناعة اكفاء»(1) . انتهت ترجمة النص من جريدة «العالم» الفرنسية .

واذا كانت العلوم والصناعات والثقافات والحضارات كلها مظاهر للافكار الناضجة والشواعر المرهفة والقلوب الواعية ، فكذلك اللغة ـ هي الاخرى ـ تعبير عن تصورات الافكار وحوافز المشاعر . وليست ـ هي ـ القوة المفكرة ، التي تنشىء وتبدع ، وانما هي خصيصة من خصائص بني الانسان ، موجودة فيهم بالقوة صغاراً ، وبالفعل كباراً . ولولا ذلك ما سمي الانسان «حيواناً ناطقاً» . واللغة ما هي سوى رموز واسماء ، موضوعة لأشياء ومسميات مخترعة حسب حاجات الامم والشعوب اليها . واذا كان اختراع الاشياء سابق الوجود على وضع اسمائها فاللغة ـ اذن ـ عديمة الوظيفة قبل وجود الاختراعات . ولا يمكن ان توصف اللغة الفرنسية دون غيرها من سائر اللغات الاخرى ـ بـ «العلم والصناعة . . . » ؛ حسب زعم هذا الفريق المعترض ؛ اذ لو كانت

---

(1)بول ، مالطا . من مؤتمر(باكو) الى مؤتمر القمة في الجزائر . مجلة «الاصالة» الجزائر ، شعبان ـ رمضان 1393 هـ /سبتمبر ـ اكتوبر 1973 م . العدد 16 . ص 108 .

اللغات علة في تقدم الانسان ـ من حيث العلوم والصناعات والفنون والآداب ـ لأصبح كل لغوي منبعاً لذلك في كل عصر وفي كل جيل ، ولاكتفى الناس باخذهم اياها من امهات الكتب وبطون القواميس والمعاجم . وبذلك يستريح كل منهم من مشقة التعليم والتعلم : ولكن هيهات ! ثم هيهات ! ان الجمرة ليست تمرة ، وليس السر في تمطيط النون ؛ وإنما السر في نفس سُحْنون .

أما حظ الاجابة عن النقطة الثانية : فقد تقرر عند اللغويين ان عرَّفوا اللغة بانها «اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم» . وعلى هذا الاساس فليست اية لغة من لغات البشر اسهل أو أخف من الاخرى بالنسبة الى الامة التي تتكلمها بالسنتها وتكتبها بأيديها . والسبب في ذلك ان اللغة ملكة صناعية ، في اللسان نطقاً ، وفي اليد كتابة . ثم اذا كانت الصناعات تختلف باختلاف الامم والشعوب ، من حيث السهولة والصعوبة ؛ فكذلك اللغات تختلف ـ هي الاخرى ـ باختلاف الناطقين بها ، فاذا كانت بعض الصناعات سهلة بالنسبة الى من يحسن صنعتها فهي اشد صعوبة بالنسبة الى من ليس له بها علم . والعكس بالعكس . واذا كانت بعض اللغات سهلة في الاستعمال ، خفيفة في اللسان بالنسبة الى من يتكلمها فهي صعبة المنال ، ثقيلة في اللسان في نظر من يجهلها . والعكس بالعكس . وعلى هذا الاساس استسهل المتفرنسون اللغة الفرنسية ، فراحوا يحبذونها لانفسهم ولغيرهم مبنى ومعنى ،

ويدعون الناس الى تعلمها بالقلب والقالب . ثم ان هؤلاء المتفرنسين قد استصعبوا اللغة العربية ، فراحوا ينفرون منها ، ويصمونها بالعجز عن التعبير ، وبالثقل في اللسان ، وبالغموض في تركيب الحروف ، اذ كيف توصم «بالعجز عن التعبير . . لغة قد نزل بها القرآن ، الذي هو معجزة في البيان ؟! ولا ريب في انه منتهى الدقة في التعبير ! قال السيوطي ـ في «المزهر» ـ نقلاً عن ابن فارس في «فقه اللغة» ـ : «لغة العرب افضل اللغات واوسعها ، قال تعالى ! :

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيل ربِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الامِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مَبِينٍ﴾(1) فلما خص سبحانه! اللسان العربي بالبيان،علم ان سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه»(2) . وقد اجمع علماء الاسلام واللسان على عجز سائر اللغات عن الاهتداء الى اداء معاني القرآن بدقة مثلما استطاعت اللغة العربية ان تهتدي الى ادائه بعبارات موجزة وباسلوب واضح . ولهذا السبب لم تستطع جميع تراجم القرآن ـ قديماً وحديثاً ـ ان تفي بمعانيه . وتدل على مفاهيمه . قال السيوطي ـ نقلاً عن بعض العلماء ـ : «وكذلك لا يقدر احد من المترجمين على ان ينقله «أي

---

(1)سورة «الشعراء» الآيات 193 - 194 - 195

(2)السيوطي ، عبد الرحمن ، المزهر في علوم اللغة وانواعها تحقيق محمد جاد المولى ، وغيره القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ بدون تاريخ ـ ج 1 ص 322,321 .

القرآن» الى شيء من الالسنة ؛ كما نقل «الانجيل» عن السريانية الى الحبشية والرومية . وترجمت «**التوراة** ، و «**الزبور**» ، وسائر كتب الله ـ عز ! وجل ! ـ بالعربية ، لان غير العرب لم تتسع في المجاز اتساع العرب . . . »[1] ومن المؤكد ان اللغويين لم يصدروا حكمهم هذا اعتباطاً ، وانما اصدروه بعد تعمقهم في مدلولات اللغات من حيث المبنى والمعنى ، وبعد مقارنتها باللغة العربية من حيث الحقيقة والمجاز ؛ اذ كيف توصف بوصمة «**الثقل في اللسان**» لغة اتسم اصحابها بالبيان في الكلام ، وبالفصاحة في النطق ، والذلاقة في اللسان ، وذلك ما يبدو جلياً في مدلول لفظة «**عرب**» المشتقة من الابانة ، فقد قالوا : «اعرب الرجل عما في ضميره» ؛ اذا ابان عنه ، ومنه قوله ـ ﷺ ! ـ : «**الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا ، وَالْبِكْرُ رِضَاهَا صَمْتُهَا**»[2] . ولا ادل على منتهى خفة لغة العرب في اللسان من انهم استقبحوا في كلامهم التنافر في الكلمات وضعف التأليف في الكلام ؛ كما انهم استبشعوا التعقيد اللفظي والمعنوي في محادثتهم وكتابتهم . ومن يستقرىء بلاغة العرب يجد لغتهم مبنية على سلاسة المباني وقرابة المعاني ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ومنازلهم . وهل توصف بوصمة الغموض في تركيب الحروف لغة امتازت بمطابقة اللفظ للمعنى ؛ من حيث الافراد ، والتركيب ، والطول والقصر ، والخفة ، والثقل ، والشدة واللين ، والسرعة والتكرار ،

(1) السيوطي ، عبد الرحمن ، المزهر . ج 1 ص : 332

(2) رواه ابن ماجه في سننه ، واحمد في مسنده ، عن عميرة الكندي .

والقلة والكثرة ، والحركة والسكون ، والقوة والضعف ، وهلم جرا !! . . . قال ابن جني : «فلفظة «الغنطنط» طويلة اللفظ ، لطول معناها ، ولفظة «بحتر» قصيرة مجتمعة ، لأنها تدل على القصير المجتمع الخلق . والفاظ «الدوران ، و «الثوران» ، و «الغليان» تتابعت حروفها لتتابع حركات معانيها . والفاظ «الضرّاب» و «الأفاك» ، و «الدخال» ، و «الخراج» ، و «القوال» ، و «السوّال» ، تكرار الحروف المضعفة فيها ، يدل على تكرار المعاني . والفاظ «الغضبان» ، و «الحيران» ، و «الضمآن» يتسع النطق بها ، ويمتلىء الفم بلفظها ، لامتلاء حاملها من هذه المعاني ، فالغضبان ـ مثلاً ـ هو الممتلىء غضباً ، والذي اتسع غضبه حتى ملأ قلبه وجوارحه . والفاظ : «خشن» و «اخشوشن» ، و «اعشب» ، و «اعشوشب» ، و «غدن» ، و «اغدودن» فان كل لفظة تزيد على اختها في الحروف اقوى منها في المعنى . قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت «الجندب» استطالة ومداء فقالوا «صر» ، وتوهموا في صوت «البازي» تقطيعاً ، فقالوا : «صرصر» . وقال سيبويه ـ في المصادر التي جاءت على «الفعلان» ـ : انها تأتي للاضطراب والحركة ، نحو «النقزان»(1) ، و «الغليان» ، فقابلوا : بتوالي حركات المثال توالي حركات الافعال . ووجدت ـ أنا ـ من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ، ومنهاج ما مثلاه . وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير ، نحو «الزعزعة» ،

(1) النقزان : الوثوب والقفز صعوداً

و «القلقلة» ، و «انصلصلة» ، و «القعقعة» ، و «الصعصعة»[1] ، و «الجرجرة» ، و «القرقرة»[2] . ووجدت - ايضاً - «الفعلي» في المصادر والصفات انما تأتي لسرعة ، نحو «البشكي» ، و«الجمزي» ، و «الولقي» . . .

فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر - اعني «باب القلقلة» - والمثال الذي توالت حركاته للافعال التي توالت الحركات فيها . . .»[3]:

ثم يتابع ابن جني حديثه ، فيقول : «هذا فصل من العربية حسن ؛ منه قولهم «خشن» ، و «اخشوشن» . فمعنى خشن دون معنى أخشوشن ، لما فيه من تكرار المعاني وزيادة الواو . ومنه قول عمر - رضي الله عنه ! - : «**اخشوشنوا ، وتمعددوا**» ، اي : اصلبوا ، وتناهوا في الخشن . وكذلك قولهم «اعشب المكان» ، فاذا ارادوا كثرة العشب فيه قالوا «اعشوشب» . ومثله «حلى» و«احلولى» ، و «خلق» ، و «اخلولق» ، و «غدن» ، و «اغدودن» . ومثله باب «فعل» ، وافتعل نحو «قدر» ، و «اقتدر» . فاقتدر اقوى من قولهم «قدر» . وكذلك قال ابو العباس المبرد ، وهو محض

---

(1) الصعصعة : التحريك والقلقلة .

(2) القرقرة : ترديد الصوت من الدجاجة أو الحمامة ، أو البعيرة .

(3) ابن جني ، عثمان . الخصائص تحقيق محمد علي النجار . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 1955م . ج2 ص 152، 153 .

القياس . قال الله ـ سبحانه ! ـ : ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾[1] فـ «مقتدر» هنا اوفق من قادر ، من حيث كون الموضع لتفخيم الأمر وشدة الاخذ . . .»[2] .

فبضرب هذه الامثال يتضح لنا جلياً ان العرب يحافظون في كلامهم على دقة المعاني ؛ مثلما يحافظون على تحسين الالفاظ ايضاً ، لان اللفظ وعاء للمعنى ، وقالبه الحاوي لاسراره .

وهذه هي الحكمة التي وضعها الله في ألسنة العرب دون سائر الاجناس .

قال ابو اسحاق الكندي لأبي العباس المبرد : «اني اجد في كلام العرب حشواً ؛ تقولون : عبد الله قائم ، ثم تقولون : ان عبد الله قائم ، ثم تقولون : ان عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ؟!» ، فأجابه المبرد بقوله : «ان المعاني مختلفة» ، فقولهم : عبد الله قائم اخبار عن قيامه ، وقولهم : ان عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : ان عبد الله لقائم جواب عن انكار منكر قيامه . فقد تفاوتت المعاني مع تغيير يسير في تركيب اللفظ» .

وقد تكلفت كتب المعاني والبيان بما اشتمل عليه كلام العرب من حسن التركيب وبراعة الاسلوب ، وتحديد المعنى . واما ادعاء هذا المعترض من كون «ولد المدرسة الفرنسية يتقدم بسرعة في قراءة اللغة الفرنسية وكتابتها ، وليس كذلك ولد المدرسة العربية ، فهو

---

(1) سورة «القمر» الآية 42 .

(2) ابن جني ، عثمان ، الخصائص . ج 2ص 264 . 265

ادعاء باطل ، لا نصيب له من الصحة ، لان الواقع الملموس قد اثبت ان هناك اولاداً في المدرسة العربية قد تعلموا الكتابة العربية وقراءتها في ظرف قصير جداً . ومن بين هؤلاء الاولاد ولد لي اسمه «سيف الدين» فقد تعلم كتابة الجمل العربية وقراءتها في «مدرسة الحضانة» ـ في ظرف ثلاثة أشهر ، وعمره ـ اذ ذاك ـ لا يتجاوز خمس سنوات . وفي نظرنا ان سرعة التعلم وبطئه يعودان الى اسباب خارجة عن نطاق الولدين واللغتين معاً .

ومن جملة هذه الاسباب عقم طريقة التعليم ، وفقدان وسائله ، وعدم كفاءة المعلم ، وتفرنس الجو المدرسي ، وهلم جرا . . . وقد اشبعنا الكلام في الرد على مثل هذا الادعاء ـ تحليلاً وتعليلاً ـ عندما بسطنا حديثنا الذي رددنا به على **«دعاة العامية»** .

وأما حظ الاجابة عن النقطة الثالثة : فيتمثل في أن اللغة الفرنسية بافريقية الشمالية لم تكن لغة سكان هذه المنطقة بالاصالة ، بل لم يرض هؤلاء السكان ان تكون هذه اللغة مصطنعة في افواههم ، اذ كل اصطناع ممقوت في ديننا ، وهو وليد النفاق المحرم نقلاً وعقلاً على المسلمين شرقاً وغرباً . ونحن على يقين بان اللغة الفرنسية لم توجد فينا بالطبيعة ولا بالوراثة ولا بالمحبة ؛ وانما قد جاء بها من غزانا في عقر ديارنا ، واستولى على بلادنا قسراً وقهراً . واذا صح ان الفرنسيين قد جاءوا غزاة مستعمرين لبلادنا ـ ولا ريب في ذلك ـ فان لغتهم ـ هي الاخرى ـ غازية لافكارنا وشواعرنا بالدرجة الاولى .

والمنطق السليم يأبى ان يطرد الغازي من الأوطان والمستعمر مِّن الأقطار، وتبقى لغته عالقة بالأفكار ساكنة في الشواعر . وإذا كان استقلال البلاد يتوقف على طرد الغازي والمستعمر لها ، فحرية العباد تتوقف ـ هي ايضاً ـ على محو افكارهما ، وشواعرهما ، اللتين توحي بهما لغتهما الى الشعوب المغزوة والاجيال المستعمرة ، والامم المغفلة . فلا استقلال دون طرد ذوات الاجانب ، ولا حرية دون محو اخلاقهم وافكارهم ، التي تتبلور وتتمثل في لغاتهم . وليست مرافق الحياة اليومية متوقفة على اللغة الفرنسية ـ حسب زعم الفريق المعترض ـ ولا على الناطقين بها ؛ بل الحياة كلها مشاعة بين الاحياء شعوباً وقبائل . وقد خلقهم الله كذلك من اجل التعارف بوساطة شتى اللغات . قال جل من قائل : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (1) فصيغة التعارف تدل على المشاركة في الفعل . اي : كل واحد يفعل بالآخر مثلما يفعل الآخر به ؛ حتى يكون كل منهما فاعلاً ومفعولاً . وعلى هذا الأساس فان جميع افراد الأمم والشعوب والقبائل سواسية ، من حيث احتياج بعضهم الى بعض في مفاهيم الحياة ومرافقها . واذا كان هذا التعارف متوقفاً على فهم كل قبيلة ـ او شعب او امة ـ لغة امة اخرى تريد التعامل معها والتعارف اليها ، اذن ، فلماذا لم تحاول الأمة الفرنسية ان تفهم لغتنا وتجعلها همزة وصل بيننا وبينها ؛ اذا كانت راغبة في التعامل معنا في شؤون هذه الحياة ؟! انها لم تفعل ذلك ، ولن تفعله ، رغم ان مصالحها

(1) سورة «الحجرات» الآية 13

ببلادنا كثيرة جداً ورغم انها في ايدي العرب الأقحاح ، المتمسكين بلغتهم وعروبتهم في السراء والضراء . والسبب في ذلك ان الفرنسيين جميعاً ينظرون الى العرب على وجه العموم نظرة السيد الى المسود ، والقوي الى الضعيف ، والغني الى الفقير ، والمثقف الى الجاهل ، والذكي الى الغبي . واذا كانت الكبرياء وشماخة الأنف صفة حميدة لدى الفرنسيين ـ ابان ـ تعاملهم معنا ، فاننا لا نرضى بذلك ما دمنا نؤمن بقوله ـ تعالى ! ـ: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(1). وعلى ضوء ماتقدم يتضح لنا اننا لسنا في حاجة الى اللغة الفرنسية اكثر من حاجة الفرنسيين الى اللغة العربية ؛ لو انصفوا واعترفوا بما لهم وما عليهم ، بيد ان لفظتي الانصاف والاعتراف كلاهما مفقود في قواميس الغزاة لافكار سواهم ، ومحذوف من معاجم المتجاهلين للغات غيرهم . ومن كان هذا شأنه فهو الأناني بحق .

وبهذه المناسبة اذكر قصة ، يذرف لها الدمع ذرفاً ، وتحز في القلوب حزاً !! ولعلها تكون درساً للعرب والمسلمين المعاصرين ، وعبرة لأبنائهم في الاجيال القادمة :

في اليوم الثاني من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٤ للميلاد كنت مريضاً طريح الفراش في مستشفى «**كوشان**» **(Cochin)** بالطابق السادس من فرع الطب العام بـ«**باريس**». وكان في نفس الفرع والطابق والمستشفى طالب مصري مريض ، اسمه : حمدي احمد

(1) سورة «المنافقون» الآية 8 .

حسن من مدينة «الاسكندرية» ، وكان هذا الطالب يزورني ـ احياناً ـ في حجرتي ، لنتحادث في شؤون ثقافية . وكان حديثنا ـ طبعاً ـ بالعربية ، وكان يرافقني في هذه الحجرة ثلاثة اشخاص من مرضى الفرنسيين ، وذات يوم خاطبني احدهم بقوله : «لا يجوز لك ولا للزائر المصري ان تتحادثا بلغتكما هنا ، بل يجب على كل منكما أن يتحادث باللغة الفرنسية ، حتى نكون على علم وبصيرة ونفهم ما تقولان» . فأجبته : بأن هذا الطالب المصري لا يحسن التحادث باللغة الفرنسية ولا يسعه ان يتعلمها في غضون ايام قلائل يقضيها ـ هنا ـ بالمستشفى ، وبالاضافة الى ذلك فنحن احرار في حديثنا بأية لغة شئنا . ولعل تحادثنا بلغتنا يعد فضيلة ، وليس جريمة ، لأن في ذلك تمثيلاً لنزعتنا وشخصيتنا . فاستغاظ الفرنسي ـ اذ ذاك ـ وخاطبني بلهجة اشد من ذي قبل ، وبصوت مرتفع جداً ـ : «لا ، فنحن لا نرضى بهذا ، فان لم تكفا عن الحديث بهذه «الشرابية» طوعاً ، فانني سأمنعكما بالقوة » ، فقلت له : لسنا في محل تستعمل فيه القوة ، وانما نحن في محل اللين والرحمة والانسانية ، فهذا مستشفى ، ونحن مرضى .

ولما تعالت الاصوات دخلت علينا «المراقبة العامة» : الآنسة «فوري» (Faury) وبدل ان تستفسر كلاً منا عن القضية ، توجهت نحو سريري ، وخاطبتني ـ بالحرف الواحد ـ : «اسكت ! اسكت ! نعم ، معه الحق ، لا يجوز لكما الحديث بالعربية هنا» .

فعندئذ دفعت بي كرامتي ان انزل الى «الادارة المركزية» ،

وارفع القضية الى «المدير العام» ، فاستقبلني «نائب المدير» ، واحطته علماً بما حدث ، وبعد قليل من عودتي الى حجرتي صعد هذا النائب الى الطابق السادس ، حيث مقامي ، وأخذ يستفسر «المراقبة» عن القضية ، فأنكرت ما خاطبتني به . أما الشخص الفرنسي فلم ينكر ذلك ، بل أصرّ على رأيه . وفي النهاية توجه نحوي «نائب المدير» ، وخاطبني بقوله : «ليكن في علمك يا سيدي ابن عبد الكريم ان هذا الشخص لما كان لم يفهم حديثكما بالعربية ، ظن انكما تطعنان فيه وفي ابناء ملته ، وبناء على ذلك فالاحسن ان يكون الحديث باللغة الفرنسية وكفى» . فعند ذلك فهمت ان العنصرية المقيتة داء متفش في فرنسا حتى في المستشفيات !!

واما حظ الاجابة عن النقطة الرابعة : فهو كمايلي : ان الحقيقة التاريخية والواقع الملموس كلاهما يشهد ان السلطة الفرنسية في افريقية الشمالية قد بذلت كل ما في وسعها ، من أجل بث لغتها في شعوب هذه الاقطار الثلاثة : تونس ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ـ ولا سيما الشعب الجزائري الذي كانت تعتبر بلاده في نظر الفرنسيين قطعة من ارض «فرنسا» وجزأ لا يتجزأ منها . ولم تكتف هذه السلطة بترغيب هذا الشعب في تعليم اللغة الفرنسية وتشجيعها اياه على ذلك فحسب ، بل تجرأت ووضعت قانونا يقضي باجبار ابناء الشعب الجزائري ـ على تعلم اللغة الفرنسية . ويدخل تحت قانون الاجبار كل من بلغ ست سنوات من عمره ويستمر كذلك الى بلوغه اربع عشرة سنة ؛ حيث يزول عنه قانون الاجبار ، وحيث

تبتدىء جحافل العراقيل والمعوقات توضع في طريق مواصلة تعلمه وتثقفه ، ولا سيما إن بدت عليه ملامح الفطانة والذكاء والنجابة . و. والسبب في ذلك أن فترة القانون الاجباري كافية لزَرع اخلاق الفرنسيين وعوائدهم ودينهم في نفوس اطفال الشعوب المستعمرة من طرف السلطات الفرنسية . ثم ان نية العرقلة والتعويق تهدف الى وضع حواجز فولاذية تحول بين المناصب السامية وبين أبناء هذه الشعوب ، التي تعمل السلطات الفرنسية على تسليط الشكوك عليها . وابقائها رهن الذبذبة والاضطراب ، لا الى هؤلاء ! ولا الى هؤلاء ! ومن حسن حظ الجزائريين (1) ان جلهم قد عصى قانون الاجبار ، ولم يمتثل اوامر السلطات الفرنسية فيه ، بل فضل هؤلاء ان يبقى ابناؤهم اميين خير لهم من تعلمهم اللغة الفرنسية ، التي في نظر آباء هؤلاء الأبناء مفسدة لايمان الولد المسلم وماسخة لشخصيته العربية . وتعلمه اياها سيدفع به الى المروق من حوزة الدين ، والى التمرد على اخلاق المسلمين . وعند ذلك سيصبح مظهراً صادقاً لأخلاق الفرنسيين وعوائدهم . وهذا ما حدث بالضبط ، بعد طرد الفرنسيين من اقطار الشمال الافريقي واستقلالها وتحرير شعوبها . فقد اصبح سكان هذه الاقطار المتعربون يعانون من مواطنيهم المتفرنسين ـ لساناً ـ وخلقاً ـ اشد واكثر مما كانوا يعانونه من

---

(1) خصصنا الجزائريين ، لان قانون الاجبار خاص بهم ، ولم يشمل تونس والمغرب ، لانهما تحت الحماية وليسا بمستعمرين مثل الجزائر ، التي كانت قطعة من فرنسا حسبما يزعم الفرنسيون .

الفرنسيين بالامالة طوال اعوام الاحتلال . وفي نظرنا ان بقاء الولد امياً أفضل له من تعلمه لغة تُفضي به الى نكران دينه ونسبه وشخصيته ، لأن الأمي مازال على الفطرة ، فهو وعاء صالح لكل شيء يوضع فيه ، وقابل لاحتوائه . ومتى ملىء الوعاء بشيء لا يتسع لشيء آخر . «**كل مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى : يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ ، فَأَبَوَاهُ يُهَودَانِهِ إِوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**» (1) .

وقبل ان ننهي «**حظ الاجابة**» عن هذه النقطة نود ان نورد دليلين اثنين . لعلهما يكونان خير رائد لمن ارتاب فيما بذلته السلطة الفرنسية من اجل نشر لغتها في اقطار الشمال الافريقي . ولاسيما القطر الجزائري ، الذي قد قاسى ـ ومازال يقاسي ـ من المتمسكين بهذه اللغة الويلات تلو الويلات سراً وعلانية .

الدليل الاول : منع تعليم اللغة العربية بطريقة مباشرة وغير مباشرة .

فاما الطريقة المباشرة : فتتمثل في عقاب كل من يحاول ان يفتح محلاً لتعليم اللغة العربية . واذا حصل شخص على رخصة تسمح له بذلك فهو مقيد ببنود تحدد له المادة التي يعلمها . والاوقات التي يفتح فيها الكتاب أو المدرسة . وكانت مادة التعليم أغلبها محصور في تعليم القرآن العظيم ـ أي : في حفظه دون شرحه

---

(1)رواه أبو يعلى في «المسند» والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «السنن» كلهم عن الاسود بن سريع .

وافهامه ـ وفي تعليم قسم «العبادات» من الفقهيات . وكانت اوقات التعليم ـ محددة ـ من طلوع الفجر الى الساعة الثامنة صباحاً ، ومن الرابعة مساء الى صلاة العشاء . لأن الاوقات التي ما بين الساعة الثامنة والرابعة كلها من حظ اللغة الفرنسية . ولا ننكر ان هناك بعض التسامح والتغاضي من السلطة المأمورة بتطبيق هذه الاوامر . ولذلك نجد بعض المدراس والكتاتيب تستمر مفتوحة حتى في اوقات تعليم اللغة الفرنسية . وأغلبها في المدن الصغيرة والقرى والمداشر ، حيث تندر المدارس الفرنسية ، أو تفقد تماماً . ولولا هذا التسامح والندور والفقدان ما بقي دين الاسلام ، ولا اللغة العربية في القطر الجزائري .

وأما الطريقة غير المباشرة : فتتمثل في اهمال قراء العربية ، وسد أبواب مكاسب العيش في وجوههم . وفي تجاهل النتاج المكتوب باللغة العربية ، ومسخه بكتابته بالحروف اللاتينية . أو نقله الى اللغة الفرنسية ، لا لرغبة فيه واستفادة منه ، بل «لغاية في نفس يعقوب» .

الدليل الثاني : انشاء المدارس الفرنسية في المدن والقرى . وفي بعض المداشر ، وتوفير الامكانيات لهم . ليتمكنوا من فرنسة هذه الشعوب وتمسيحها . تلك الشعوب التي أبت الا ان تبقى عربية اللسان ، مسلمة الجنان ، مادامت السماء فوقنا والارض تحتنا .

وكانت السلطة الفرنسية اوائل الاحتلال قد حاولت أن تجبر

وجهاء الجزائر على ارسال ابنائهم الى «فرنسا» من أجل تعلمهم اللغة الفرنسية هناك . بيد انها قد فشلت في محاولتها هذه التي سجلها عليها التاريخ . قال حمدان بن عثمان خوجه الجزائري : « ثم قال القائد «كلوزيل» - ايضاً - : انه من أجل طمأنة ضميره وراحة باله واعطائنا اياه الدليل على ثقتنا بالحكومة الفرنسية . يجب علينا أن نجمع له - على الأقل خمسين ولداً من أبناء اعيان الجزائر . ليرسلهم الى «فرنسا» كرهائن . ولكي يدرسوا اللغة الفرنسية هناك . . فما كان من السيد شيخ البلدة «كادي دوفو» الا ان دعم هذا الطلب . ثم اقترح تنفيذه . واذا وقع العكس ورفض هذا الطلب فان هؤلاء الاعيان سيصبحون مجبرين على دفع مبلغ ما من المال . ثم اضاف السيد «كادي دوفو» قائلاً : ان رفض ارسال الاولاد الى «فرنسا» يعتبر بمثابة التمرد على الفرنسيين ، وكل من يرفض هذا الطلب يجب عليه أن يغادر الجزائر .

ورغم ذلك لم يغادر اي شخص (من اولئك الوجهاء) الجزائر ، كما لم يقدم أي واحد منهم على ارسال ولده الى «فرنسا» . (1)

فبهذا النص ينكشف لنا امران ، اولهما : حرص السلطة الاستعمارية على تعليم ابناء الجزائر اللغة الفرنسية بالتي هي احسن

---

(1) حمدان بن عثمان خوجة الجزائري - المرآة - تعريب محمد بن الكريم . مكتبة دار الحياة - بيروت ، 1972م ص 215، 216.

او بالتي هي اخشن . ولم تكن هذه السلطة تمنع ابناء شعوب الشمال الافريقي من تعلمهم تلك اللغة ، مثلما زعم هذا الفريق المعترض ، بل قد رغبتهم في ذلك وشجعتهم عليه بإحضار كل الوسائل ، وتوفير جميع الامكانات لكل من يعلمها ويتعلمها . وان هم أبوا وامتنعوا عاقبتهم بدفع الاموال تارة . وبالنفي تارة اخرى ، واتخذتهم عصاة متمردين ، واعداء ألداء .

ثانيهما : امتناع الجزائريين عن تعلم اللغة الفرنسية ، ولو ادى بهم هذا الامتناع الى خسارة في اموالهم أو طردهم من وطنهم . والسبب في امتناعهم عن تعلم هذه اللغة انهم يرون في ذلك محو شخصيتهم وفساد اخلاقهم ، وذهاب دينهم .

ولعل في هذا قدوة لنا ، وعبرة للمتفرنسين ، الذين «قد باعوا العين الصحيحة بالعور» واما المتأسفون على عدم تعلمهم اللغة الفرنسية إبان الاحتلال - نزولاً عند رغبة آبائهم واسرهم - فجوابنا لهم هو مايلي : أتاسفون على لغة محت مقوماتكم ، وافسدت اخلاقكم . وذهبت بدينكم ؟ ! ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾[1] . ان لكم في المتفرنسين عبرة بالغة ، ان انتم تدبرتموها زال تأسفكم، وعدتم الى رشدكم . « عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَم وَأَنْتُمْ لاَتَعْلَمُونَ﴾[2]

---

(1)سورة «ص» الآية 5 .

(2) سورة «البقرة» . الآية 216 .

واما حظ الاجابة عن النقطة الخامسة : فيتبلور فيمايلي : ان المتعربين والمتفرنسين لهما سواسية في الآدمية ، .ولهما شرع في العقل ، والاحساس والشعور والعاطفة البشرية ، وانما الفرق بينهما ان اولئك المتعربين وطنيون . وان هؤلاء المتفرنسين مواطنون . والفارق بينهما ان الوطنيين لم يفوزوا بحنكة الادرايين ، ولم يكتسبوا تجارب الانانيين ، لأنهم عن ممارسة شؤون الادارة مبعدون ، وعن اعتناق مناصب الانانية محجوبون ! وان المواطنين قد اصبحت مقاعد الادارة وقفاً عليهم ، وكراسي الأنانية من حظوظهم . فبذلك طالت تجاربهم ، وغدوا دهاة محنكين ، حسب مزاعمهم. ولو حاسبوا انفسهم ، واصغوا الى ضمائرهم ، وراجعوا معلوماتهم بالنسبة الى ما يتعلق بالفوضى ، لاعترفوا بانهم لجحافلها مرشدون ولجيوشها منظمون .

وتبدو هذه «**الفوضى المنظمة**» واضحة الدلالة في متيهة اعمالهم الادارية ، التي لا رأس لها ولا ذنب . وفي «**المشكلات المصطنعة**» ذات الحلقات المتتابعة، تلك المشكلات التي اوحت بها شياطين المتفرنسين لتثبيط عزائم المتعربين ، عندما يحاولون الانخراط في سلك الادارات الجزائرية.، أو الانضمام الى المؤسسات الوطنية . ونحن على علم ويقين بأن المشكلات الطبيعية يمكن حلها باعادة الحق الى نصابه ، وارجاع الماء الى مجاريه ، بخلاف «المشكلات المصطنعة» فان حلها ـ اذا لم يكن مستحيلاً ـ «فدونه خرط القتاد» . وفي نظرنا ان حل هذه المشكلات يتوقف على واحد من اثنين لا ثالث لهما .

فاما ان يتناسى المتفرنسون فرنستهم لغة وخلقاً ، ويعودوا الى دين اجدادهم ولغة آبائهم .

وعمل كهذا محفوف بالمكاره والصعوبات ، ونجاحه متوقف على جهد جهيد وتضحية جسيمة لا ريب في ذلك ، لأن عودة الأشياء الى أصالتها يقبلها العقل السليم . وتأباها العاطفة الشهوانية .

وإما ان ينبذ المتعربون دينهم . ويتركوا لغتهم ، ثم يندمج كل منهم في زمر المتفرنسين لغة وخلقاً . وعمل كهذا ـ ان لم يكن مستحيلاً ـ فهو من باب «الجائز المقطوع» على حد تعبير الفقهاء والمتكلمين . فهو مقطوع بعروبة هذا الشعب اصالة ولساناً ، وباسلامه خلقاً وديناً . واللغة المهذبة والدين القويم يستحيل انتزاعهما من شعب قد شاب عليهما ، واختار ان يتحلى بهما من المهد الى اللحد ، ولن يبغي بهما بديلاً ، ولو سقطت السماء على الارض ، لان وجود شخصيته متوقف على وجودهما فيها ، واعتزازه بنفسه يتمثل في تمسكه بهما في السراء والضراء ، بل لا يرضى هذا الشعب ـ ابداً ـ ان يحيد عن اللغة العربية التي هي لغة الله ، المتمثلة في نصوص القرآن المبين ، مادام يؤمن ، ـ حقاً ـ بان القرآن كتاب الله ، وكفى العرب شرفاً وفخراً ان لغتهم هي لغة الله السميع العليم .

وفي النهاية ان الحرب بين المتفرنسين وبين المتعربين لن تضع اوزارها ، مالم ينصهر أحد الفريقين في الفريق الآخر . وقد بيّنا استحالة انصهار المتعربين في المتفرنسين ، كما بيّنا حواز انصهار المتفرنسين في المتعربين . و «التَّائِبُ مِنْ ذَنْبِهِ كَمَنْ لاَذَنْبَ لَهُ» (1) والى هنا ننهي ردنا على «دَعاة الفرنسيّة» .

(1) رواه ابن ماجه .

المحتوى

الموضوع | الصفحة



لغة كـــل امة

روح ثقافتها

رقم الايداع - 330 ـ 9 ـ 04 ـ 1989